الأدبُ الكبيرُ و الأدبُ الصَغِيرُ

ابن المقفع

تحقيق

أحمد زكي باشا

الكتاب: الأدبُ الكبيرُ والَأدبُ الصَغِيرُ

الكاتب: ابن المقفع

تحقيق: أحمد زكي باشا

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
APA

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدارهذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

المقفع ، ابن
الأدبُ الكبيرُ والَأدبُ الصَغِيرُ / ابن المقفع، تحقيق: أحمد زكي باشا
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١٤١ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولى: ٠ – ٦٥ – ٦٧٧٤– ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ٤٧٩٣ / ٢٠٢٠

الأدبُ الكبيرُ و اَلأَدبُ الصَغِيرُ

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

الأدبُ الكبيرُ

تصدير

ما زلُت منذ نيّف وعشرين سنة، وأَنا أُنادي ذوي الفضل في بلادي، ليتعاونوا على إحياء الآداب العربية، حتى آذن الله بنجاح المسعَى وتحقيق المُنَى في هذه الأيام العباسية السعيدة. والأمور مرهونة بأوقاتها.

وقد تقدمتْ إليَّ جمعية العروة الوثقى لكن أُتحفها بشيءٍ من الطرائفِ الثمينة التي تخيّرتُها من هنا ومن هنا، وصرفتُ نفيس العمر في تتبُّعها في مكامنها. ولما كان غرض الجمعية النافعة الصادقة أ، يكون لها نصيب في إقامة هذا البناء الشامخ، وأن تدخل في عِداد العاملين على تجديد ذاك المجد الباذخ، فقد بادرتُ بإجابة الطلب، فأهديتُها كتابين هما جُرثومة الأدب، ومن خير ما ظهر إلى الآن بلسان العرب.

* * *

تجلَّى "الأدب الصغير" منذ عام، في ثوب قشيب بديع النظام. فحيّاة أمراء الفصاحة، واستبشر به أهل الرأْى وأرباب الحصافة. ونال عند الفريقين مكانته الجدير بها من التجلّة والإكرام.

نال من الرواج ما جعل بعض البُله المتطفلين يقلده بلا خجل، وفاته أن التكحل غير الكحَل.

لعمرى إن هذا التقليد لا يسوءنا مطلقًا. فالعاجز المزوِّر إنما يتسكع في تقليد البضاعة المقبولة ليكسب من وراء جريرته السحت والحرام.

إنما يتسكع في تقليد البضاعة المقبولة ليكسب من وراء جريرته السحت والحرام.

او أن الأغرار المغرورين يتقدمون إلينا لُنهديهم شيئًا يجعل لهم ذكرًا محمودًا ولنَهديهم السبيل الذي يكون لهم في نهايته مقامًا كريمًا لفعلنا. والله على ما نقول شهيد. ويقيننا أيضًا أنهم إذا التمسوا من تلك الجمعية نوالًا من هذا الباب، لما بخلتْ عليهم. لأن وظيفتها إسداد الخير ونفع الناس.

لكنّ الانحطاط بلغ من بعض الذين لا خَلاق لهم أنهم يؤْرون التدنّي في الأخلاق والتدلّي في الأعمال، لأن الرزق الحلال لا يُجديهم، والريح الطيبة تُؤذيهم. فمنهم لا يبالون إذا ما تشبهوا بالحييوينات الحَلَمية أو النباتات الطُّفَيلية. وماذا نقول في الفضول، ولله في خلقه شؤون.

على أنه ما دام أهل الشهامة يتضافرون على رفع مستوى الأخلاق والاتقاء بها في سلم الكمال، فلا بُدَّ للفضيلة من التغلُّب على ذلك الصنف من الحيوان، فينقرض "إن شاء الله" من جثماننا الاجتماعي، تبعًا

للناموس العمرانّي الدائم، وهو بقاء الأصلح والأنسب. فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض.

قال عبد الله بن المُقَفَع:

إنّا وَجَدْنا الناسَ قَبلَنا كانوا أعظمَ أجسامًا، وأوفرَ مع أجسامهم أحلامًا[١]؛ وأشدَّ قوةً، وأحسنَ بقوَّتهم للأُمور إتقانًا؛ وأطوَلَ أعمارًا، وأفضلَ بأعْمارهم للأشياء اختيارًا[٢]. فكان صاحبُ الدِن منهم أبلغَ في أمر الدِين علمًا وعملًا من صاحب الدِين منا؛ وكان صاحب الدنيا على مثل ذلك من البلاغة والفضل.

ووَجدْناهم لم يرضَوْا بما فازُوا به من الفضْل الذي قُسِمَ لهم لأنفسهم حتى أشركونا معهم فيما أدْرِكوا من علم الأُولى والآخرة فكتبوا به الكُتُب الباقية وضربوا الأمثال الشافية، وكَفَوْنَا به مؤُونة[٣] التجارِب والفِطَن.

وبَلَغَ من اهتمامهم بذلك أنّ الرجل منهم كان يُفتَحُ له البابُ من العلم، أو الكلمةُ من الصواب- وهو في البلد غير المأهول[٤]- فيكتُبُه على الصخور، مبادرةً للأَجَل وكراهِيَةً منه أنْ يَسقُطَ[٥] ذلك عمَّن بعدَه.

---

(١) أي عقولًا وألبابًا.

(٢) وفي ش: اختبارًا.

(٣) أي تحملوا عنا الكلفة والتعب والعناء.

(٤) أي غير السكون.

(٥) أي يضيع.

فكان صَنيعُهم في ذلك صنيعَ الوالدِ الشفيقِ على وَلدِه، الرحيم البَرِّ به، الَّذِي يجمع لهم الأموال والعُقَد[١]: إِرادةَ أنْ لا تكونَ عليهم مُؤْونةٌ في الطلبِ، وخَشْيَةَ عَجْزِهم، إنْ هم طَلَبُوا.

فمنتهى عِلْمِ عالِمنا في هذا الزمان أن يأْخذ من عِلْمهم، وغايةُ إحسانِ مُحسننا أن يقتديَ بسِيرتهم، وأحسنُ ما يُصيبُ من الحديثِ مُحَدِثُنا أن ينظرَ في كُتُبِهمْ. فيكونُ كأنهُ إِياهم يُحاوِرُ، ومنهم يَستمِعُ، وآثارَهم يتَّبعُ، وعلى أفعالهم يحتذى، وبهم يقتدي.

غير أنَّ نجِدُ في كُتُبِهم هو المنتخَلُ[٢] من آرائِهم والمنُتْقَيَ من أحادِيثهم.

ولم نجدْهم غادرُوا شيئًا يجدُ واصفٌ بليغ في صفةٍ لهُ غايةً لم يسبِقُوهُ إليها: لا في تعظيمِ لله (عزَّ وجلَّ) وترغيبٍ فيما عندَه؛ ولا في تصغيرٍ للدنيا وتزهيدٍ فيها؛ ولا في تحريرِ صنوفِ العلم وتقسيم قِسَمِهَا[٣] وتجزئة أجزائها وتوضيح سُبُلِها وتبيين مآخذها؛ ولا في وجهٍ من وجوه الأدب وضرُوب الأخلاق.

فلم يَبْقَ في جليل الأمر ولا صغيرة لقائلٍ بعدهم مقالٌ.

---

(١) العقد جمع عقدة. وهي العقار ونحوه يقال اعتقد فلان عقدة إذا اشترى بيعة أو اتخذ مالًا من عقار وغيره. وعلى هامش نسخة الشنقيطي وبخطه ما نصه: "العقد النفائس من الأموال".

(٢) أي المصفى المختار.

(٣) أي أقسام صنوف العلم.

وقد بَقِيَتْ أشياءُ من الطائف الأُمور فيها مواضعُ لغوامض[1] الفِطَن، مُشقَّةً من جسامِ حِكَمِ الأولين وقَوْلِهم. فمن ذلك بعضُ ما أنا كاتبٌ في كتابي هذا من أبواب الأدَب التي قد يَحتاج إليها الناسُ.

يا طالبَ العلم والأدب!

إنْ كنتَ نوعَ العلْم تريدُ، فاعرِفِ الأصول والفصول. فإنَّ كثيرًا من الناس يطلُبُون الفصول مع إضاعة الأُصول. فلا تكون حقيقة دَرَكهم[2] دركًا. ومَن أحرز الأُصول، اكتَفَى بها عن الفصول. وإن أصاب الفصل بعد إحراز الأصل، فهُوَ أفضل.

فَأَصْلُ الأمر في الدِين أنْ تعتقِدَ الإيمانَ على الصواب، وتَجِنبَ الكبائرَ، وتؤَدِّيَ الفريضة. فالزمْ ذلك لزومَ مَنْ لا غنَاءَ له عنه طَرْفَةَ عيْنٍ، ومَنْ يعلَمُ أنه إن حُرِمَه هَلكَ. ثم إنْ قَدَرْتَ على أنْ تُجاوزَ ذلك إلى التفقُّه في الدين والعبادة، فهو أفضلُ وأكملُ.

وأصل الأمر في صلاح الجسد أنْ لا تحمِلَ عليه من المأكل والمشرب والباه إلا خِفًّا[3]. ثم إنْ قَدَرْتَ على أنْ تعلَمَ جميعَ منافع الجسد ومضارّه والانتفاعَ بذلك كلّهِ، فهو أفضلُ.

---

(1) في ش: لصفار.

(2) تحصيلهم للعلم.

(3) خف يخف خفا، يفتح الخاء في الأخيرة، أي صار خفيفًا. والخف "يكسر الخاء" كل شيء خف محمله. فصار المعنى وجوب التخفيف في تحميل الجسد من المأكل والمشرب والباه. وذلك هو عين الاقتصاد المطلوب في كل شيء. ووردت هذه الكلمة في ش: "خفافا". وأظن المعنى بها لا يستقيم.

وأصل الأمر في البأس والشجاعة أنْ لا تُحَدِّث نفسَك بالإدبار، وأصحابُكَ مُقبِلون على عدوّهم. ثم إنْ قَدَرْتَ على أنْ تكون أوّلَ حاملٍ وآخرَ مُنْصَرِفٍ، من غير تضييع للحِذْر[١]، فهو أفضلُ.

وأصل الأمر في الجُود أنْ لا تضِنَّ بالحقوق عن أهلها. ثم إنْ قَدَرْتَ أنْ تزيد ذا الحق على حقّه وتَطَوَّلَ على مَن لا حقَّ له فافعل، فهو أفضَلُ.

وأصل الأمر في الكلام أنْ تسْلَمَ من السَّقَط[٢] بالتحفُّظ. ثم إنْ قدَرْتَ على بارِع الصواب، فهو أفضل.

وأصل الأمر في المعيشة أنْ لا تَنِيَ[٣] عن طلب الحلال، وأن تُحْسِنَ التقدير لما تُفيدُ وما تُنْفِقُ. ولا يَغُرَّنَّك[٤] من ذلك سَعَةٌ تكون فيها. فإن أعظم الناس في الدنيا خَطَرًا[٥] أحْوَجُهُم إلى التقدير؛ والملوك أحوج إليه من السوقةِ[٦]. لأن السّوقةَ قد تعيش بغير مال، والملوك لا قِوامَ لهم إلا بالمال. ثم إنْ قَدَرْتَ على الرفق واللطف في الطلب، والعلْم بوجوه المَطالب، فهو أفضلُ.

---

(١) والحذر بفتحتين أيضًا. ومعناهما التحرز.

(٢) السقط بفتحتين الخطأ من القول.

(٣) أي لا تتوانى ولا تتكاسل لا تفتر.

(٤) في النسخة السلطانية وردت هذه الكلمة مضبوطة بنون التوكيد الحقيقية. ومعلوم أن أكثر استعمال هذه النون إنما يكون في النظم. فالأولى أن تكون هنا ثقيلة.

(٥) أي وجاهة وظهورا وقدرًا.

(٦) السوقة بالضم الرعية، للواحد والجمع والمذكر والمؤنث.

وأنَا واعظُك في أشياءَ من الأخلاق اللطيفة والأمور الغامضة التي لو حَنَّكَتْكَ سِنٌ كنتَ خليقًا أ تَعْلَمَها، وإن لم تُخْبَر عنها. ولكنّنى قد أحببتُ أن أقَدِّمَ إليك فيها قولًا لترُوض[1] نفسك على محاسنها قبل أن تجْرِيَ على عادة مساوِيها. فإنّ الإنسانَ قد تَبْتَدِرُ إليه في شبيبته المساوئُ، وقد يغلب عليه ما بَدَرَ إليه منها للعادة. فإنَّ لترك العادة مَؤُونةً شديدة ورياضةً صعبة.

([1]) راض نفسه يروضها أي أكثر من مزاولتها الأمر من الأمور ليسلس قيادتها.

القسم الأول

١- آداب السلطان

بَابُ

إن ابتُلِيتَ بالسلطان[١] فتعوّذ بالعلماء.

وأعلم أن من العَجَب[٢] أن يُبتَلى الرجلُ بالسُّلطان فيرُيدُ أنْ ينتقصَ من ساعات نصَبِه وعمله فَيَزيدَها في ساعات دَعَتِهِ وفَراغِهِ وشَهْوَتِهِ وعَبَثه ونومه.

---

(١) لفظة السلطان في كتابات المتقدمين "وفي جملتهم ابن المقفع" لغاية عصر الخليفة هارون الرشيد لا تدل على المعنى المعروف في أيامنا هذه. بل تدل فقط على السلطة وولاية أمور الناس وتدبير أمور الجمهور. ثم اطلقوها على كل إنسان يتولى شيئًا من أعمال الحكومة. فهي عند المتقدمين بمعنى الوالي والحاكم وصاحب الأمر. وهارون الرشيد هو أول من اعطى لقب السلطان لوزيره جعفر، تشريفًا له على سائر البرامكة الذين كانوا يلقبون بالملوك "كما أفاده في صبح الأعشى- في باب الألقاب". ولكن اللقب بنو بويه وبنو سلجوق عند استبدادهم بالخلافة العباسية ببغداد. ومن هنا لك انتقل هذا اللقب إلى سلاطين آل عثمان وإن كان أهل مصر لم مترفوا لهم بهذا اللقب إلا بعد أن فتح الترك ديار مصر وانتعوها من المماليك. وذلك أن أهل مصر في أيام الفاطميين كانوا يسمون الوزراء بالملوك وبألقاب أخرى هي في منتهى التفخيم. وقد روى أن أحد من الوزراء تولى الإسكندرية فكان لقبه سلطان الملوك. واستمر الحال على ذلك حتى تولى الناصر صلاح الدين وزارة مصر في أيام الخليفة الأخير من الفواطم فتلقب بالسلطان تشبها بنور الدين الشهيد. وعنه انتقل هذا اللقب إلى الأبوين فالمماليك البحرية فالمماليك البرجية. وفي أثناء هذه الدولة الأخيرة ارتفع شأن الدولة العثمانية بفتح القسطنطينية فكان سلاطين مصر وأهلها يخاطبون صاحب التاج فيها بلفظ الأمير في الرسميات وأما الكتاب والمؤرخون فكانوا يعبرون عنهم بابن عثمان فقطر. وبقي الحال على ذلك حتى افتتح العثمانيون بلاد مصر فانحصر اللقب فيهم إلى الآن بأوسع معانيه، أي ملك الملوك، كما كانت الحال في مصر قبل زوال دولتها على عهد الغوري رحمه الله.

(٢) هكذا وردت هذه الملمة في جميع النسخ ولعل الصواب "العيب". وبذلك يستقيم المعنى.

وإنما الرأْيُ له والحقُّ عليه أن يأخذ لعمله من جميع شُغْله، فيأْخُذَ له من طعامه وشرابه ونومه وحديثه ولَهْوِهِ ونسائه قَدْرَ ما يكونُ به إصلاحُ جسمه وتقويةٌ له على إتمام عمله.

وإنما تكون الدَّعَةُ [1] بعد الفراغ. فإذا تقلَّدْتَ شيئًا من أمر السلطان فكُنْ فيه أحدَ رجليْن: إما رجلًا مغتبطًا به، محافِظًا عليه، مخَافَةَ أنْ يزول عنه؛ وإما رجلًا كارهًا له مُكرهًا عليه. فالكاره عاملٌ في سُخرةٍ: إما للملوك، إنْ كانوا هم سلطوه؛ وإما لله تعالى، إنْ كان ليس فوقه غيرُه.

وقد عَلِمْتَ أنه من فرَّط في سخْرَة الملوك أهلكوه. فلا تجعلْ للهلاك على نفسك سلطانًا ولا سبيلًا.

وإياك– إذا كنتَ واليًا– أنْ يكونَ من شأنك حب المدْح والتزكِيَةِ، وأنْ يعرِفَ الناس ذلك منك! فتكون ثُلْمَةً[2] من الثُّلِمِ يتقحّمون عليك منها، وبابا يفتتحونك منه، وغيبةً يغتابونك بها ويضحكون منك لها.

واعلمْ أنَّ قابِلَ المدح كمادح نفسه. والمرءُ جديرٌ أن يكون حُبُّة المدحَ هو الذي يجعله على رَدِّه. فإنّ الرادَّ له محمودٌ، والقابِلَ له مَعيبٌ.

---

(1) أي الراحة والسكون.

(2) الثلمة ج تلم الحلل في الحائط وغيره. وهي الفرجة التي تكون في الحائط وما شابهه بسبب الهدم أو الكسر.

بَابٌ

لِتَكنْ حاجَتُك في الولاية إلى ثلاثِ خصال: رِضَى ربّك، ورِضَى سلطان- إن كان فوقك-، ورِضَى صالِحِ مَنْ تَلي عليه.

ولا عليك أنْ تَلْهُوَ عن المال والذِكْر، فسيأتيك منهما ما يحسنُ ويَطِيبُ ويُكْتفِى به.

واجعلِ الخصالَ الثلاثَ منك بمكانٍ ما لا بُدّ لك منه. واجعل المال والذكْر بمكان ما أنت واجد منه بُدًا.

بَابٌ

اِعْرِفِ الفضلَ في أهل الدِين والمُرُوءَة في كل كُورَة[1] وقَريَةٍ وقبيلة. فلْيكونوا هم إخوانَك وأعوانَك وأخدانَك وأصفياءَك وبطانَتَك ولطفاءك وثَقاتِك وخُلَطاءَك. ولا تَقذِفَنَّ في رُوعِك أنك إنِ استشرت الرجال، ظهر للناس منك الحاجةُ إلى رأي غيرك. فانّك لستَ تريد الرأْي للافتخار به، ولكنمَّا تُريده للانتفاع به. ولو أنك مع ذلك أردتَ الذكْرَ، كان أحسنَ

(1) الكورة بضم الكاف الصقع. وذلك من التقاسيم الجغرافية القديمة مثل الرستاق في بلاد فارس والمخلاف في بلاد اليمن والجند في بلاد الشام. وكما نقول الآن مديرية، فيما يختص بأرض مصر. والكورة لفظة فارسية محتة "أي بحتة" استعارها العرب كما استعاروا لفظة الإقليم عن الأغارقة. وهي عندهم دليل على كل صقع يشتمل على عدة من القرى التي تُضاف إلى قصبة أو بندور أو مدينة أو نهر مما يكون اسمه على الكورة كلها.

الذكريْن وأفضلَهما عند أهل الفضل والعقل أن يقال: لا يتفرّد برأْيه دُونَ استشارة ذوِي الرأْي.

* * *

إنك إن تلتمس رِضى جميعِ الناس، تلتمِس ما لا يُدْرَكُ.

وكيف يتّفق لك رأي المختلفين؟ وما حاجَتُك إلى رِضَى مَنْ رِضاهُ الجَوْر، وإلى مُوافَقَة منْ مُوافَقَتُه الضلالة والجهالةُ؟ فعليك بالتماس رِضَى الأخيار منهم وذوي العقل. فإنّك متى تُصِبْ ذلك، تَضَعْ عنك مَؤُونةَ ما سواه.

بَابُ

لا تُمَكِنْ أهل البلاء الحَسَن عندك من التدلُّل[1] عليك، ولا تُمكِنَنَّ مَن سواهم من الاجتراء عليهم والعيْب لهم[2].

* * *

لِتَعْرِفْ رعيَّتُك أبوابك التي لا يُنال ما عندك من الخير إلَّا بها، وأبوابَ التي لا يَخافُك خائفٌ إلا من قِبَلها.

* * *

(1) التدلل "بالدال المهملة" هو افراط الإنسان على أخيه للوثوق بمحبته وميله.

(2) يقال عاب له كعابه "تفسير للأمير شكيب".

اِحرِصِ الحِرص كلَّه على أنْ تكون خابرًا امورَ عُمّالك. فإنَّ المُسِيء يَفْرَق[1] من خُبْرتك قبل أن يُصيبَهُ وَقْعُك به وعقُوبَتُك؛ وإنّ المُحْسِن يستبشر بعلمك قبل أنْ يأْتيه مَعروفُك.

* * *

لِيَعْرفِ الناسُ، فيما يعرِفون من أخلاقك، أنك لا تُعاجِلُ بالثواب ولا بالِعقاب! فإنَّ ذلك هو أدوم لخوف الخائف ورَجاءِ الراجي.

بَابُ

عوّدْ نفسك الصبرَ على مَن خالفك من ذوي النصيحة، والتجرُّعَ لمرارة قولهم وعذْلِهم؛ ولا تُسَهِّلنَّ ذلك إلا لأهل العقل والسِنِّ[2] والمُرُوءِة، لِئَلا سنتشر من ذلك ما يجترِيءُ به سفيه أو يَستَخِفُّ به شانيءٌ[3].

بَابُ

لا تتركَنَّ مباشرةً جسيم أمرك، فيعودَ شأنُك صغيرًا؛ ولا تُلْزِمَنَّ نفسك مباشرة الصغير، فيصيرَ الكبيرُ ضائعًا.

* * *

([1]) يخاف.

([2]) وفي نسختنا: الستر. وتد اختزن رواية ش.

([3]) أي مبغض.

واعلمْ أنَّ مالَكَ لا يُغنِي الناسَ كلهم، فاخصُصْ به أهل الحقّ؛ وأنّ كرامتك لا تُطيق العامَّةَ كلها[1]، فتَوَخَّ بها أهل الفضل؛ وأنّ قلبك لا يتسع لكل شيء، ففرِّغْهُ للمهمّ؛ وأنّ ليلك ونهارك لا يستوْعبان حاجاتِك (وإنْ دأبتَ فيهما)؛ وأنْ ليس لك إلى إدامة الدأْب فيهما سبيلٌ حاجة جسدك إلى نصيبه منهما. فأَحْسِنُ قسمتهما بين عملك ودَعَيتك.

* * *

واعلمْ أنّ ما شَغَلْتَ من رأْيك بغير المُهمّ أزرَى بك في المُهمّ، وما صَرَفْتَ من مالك في الباطل فَقدْتهُ حين تُريدهُ للحقّ، وما عدّلتَ به من كرامتك إلى أهل النقص أَضَّربك في العجز عن أهل الفضل، وما شغَلتَ من ليلك ونهارك في غير الحاجة أزرَى بك عند الحاجة منك إليه.

* * *

اِعلمْ أنّ من الناس ناسًا كثيرًا يبلغ من أحدهم الغضبُ– إذا غَضِب– أنّ يَحْمله ذلك على الكُلوح[2] والقُطُوب[3] في وجه غير مَن أغضبَهَ، وسوءِ اللفظ لمَن لا ذنْبَ له، والعقوبةِ لمَن لم يكن يَهِمُّ بمعاقبته، وشدَّةِ المعاقبة باللسان واليدِ لمَنْ لم يكن يُرِيد به إلا دُونَ ذلك. ثم يبلغ

---

(1) في النسخة السلطانية: حملها. "وبفتح اللام" فصححناها على حسب ما اقتضاه المقام وانتظام السياق. ولم يرد هذا الحرف في بقية النسخ.

(2) الكلوح والكلاح "بضم الكاف فيهما " التكشر في عبوس.

(3) القطوب هو الجمع بين العينين في حالة الغضب.

به الرِضَى– إذا رَضِي– أنْ يتبرعَ بالأمر ذي الخَطَر[1] لمَنْ ليس بمنزلة ذلك عنده، ويُعطِي مَن لم يكن يُريد إعطاءَه، ويُكْرِمَ مضنْ لم يُرِد إكرامه ولا حقَّ له ولا مودَّةَ عنده.

فاحذر هذا الباب الحذَرَ كلَّه! فإنّه ليس أحدٌ أسوأَ فيه حالاً من أهل السلطان الذين يُفرِطون باقتدارهم في غضبهم وبتسرُّعهم في رضاهم. فإنّه لو وُصِفَ بهذه الصفة من يُلْتَبَسُ بعقله أو يَتَخَبَّطُهُ المِسُّ أنْ يُعاقِبَ عند غضبِه غيْرَ أغضبه ويَحْبُو عنده رضاه غير مَن أرضاه، لكان جائزًا ذلك في صِفَتِهِ.

بَابٌ

اِعلمْ أنَّ المُلك ثلاثةٌ: مُلْكُ دِينٍ، ومُلْكُ حزم، ومُلْكُ هَوى.

فأمَّا مُلْكُ الدّين فإنه إذا أقام للرعية دينهم– وكان دينُهم هو الذي يعطيهم الذي لهم ويُلْحِق بهم الذي عليهم– أرضاهم ذلك، وأنزل الساخط منهم منزلة الراضي في الإقرار والتسليم.

وأمّا مُلْكُ الحزم فإنه يقوم به الأمر ولا يَسلْمُ من الطعن والتسخُّطِ. ولن يَضُرَّ طعنُ الضعيف مع حزم القويّ.

وأمّا مُلْكُ الهوى فلَعِبُ ساعةً ودمارُ دهرٍ.

([1]) العظيم القدر والقيمة.

بَابُ

إذا كان سلطانك عند جِدَّةٍ[١] دولةٍ، فرأيتَ أمرًا استقام بغيرْ رأْي، وأعوانًا أَجْزَوْا[٢] بغير نَيلْ، وعملا أنْجَحَ[٣] بغير حزم، فلا يَغُرَّنْك ذلك ولا تَستْنيِمَنَّ إليه. فإنّ الأمر الجديد رُبَّما يكون له مهابةٌ في أنفس أقوام وحلاوة في قلوب الآخرين، فيُعينُ قومٌ على أنفسهم ويعين قومٌ بما قِبَلَهم. ويَسْتَتب ذلك الأمرُ غيرَ طويلِ، ثم تصير الشؤُون إلى حقائقها وأصولها.

فما كان من الأمور بُنيَ على غير أركان وثيقةٍ ولا دعائمَ مُحْكَمةٍ، أوْشَكَ أنْ يتداعَى ويتصدَّعَ.

* * *

لا تكوننَّ نَزْرَ الكلام والسلام، ولا تَبْلُغَنَّ بهما إفراط الهشاشة والبشاشة. فإنَّ إحداهما من الكِبْر والأخرى من السُّخْف.

بَابُ

إذا كنتَ إنما تضبط أمورك وتصولُ على عدوّك بقومٍ لستَ منهم على ثقةٍ من دِينٍ ولا رأْيٍ ولا حِفَاظٍ من نيّة، فلا تفعلْ نافلةً[٤]، حتى

---

(١) أي في حالة الظهور والارتفاع.

(٢) أي أغنوا عن غيرهم بدون أجر يقابل عملهم أو يعادله.

(٣) نجح يستعمل لما لا يعقل، فيقال نجحت الحاجة ويقال أيضًا أنجحت وأنجحها الله تعالى أي صلحت وصحت. وأما أنجح فإن استعماله خاص بمن يعقل بمعنى فاز وأدرك غرضه.

(٤) النافلة ما يفعله الإنسان مما بيس بواجب عليه. ويقابلها عند الفرنساوية "Euvre Surogatoire" وقد ورد في ش: "فلا تنفعك نافعة"

تحمِلهم– إن استطعت– على الرأْي والأدب الذي بمثله تكون الثقة، أو تستبدِلَ بهم، إنْ لم تستطع نقلهم إلى ما تريد. ولا تَغُرَّنك قوَّتُك بهم على غيرهم. فإنّما أنت في ذلك كراكبِ الأسد الذي يهَابُهُ مَن نظر إليه، وهو لِمَرْكَبه أهْيَبُ.

بَابُ

ليس للملك أن يَغْضَبَ، لأنَّ القُدرة من وراء حاجته.

وليس له أ يكذِبَ، لأنه لا يقدِر أحد على استكراهه على غير ما يُريد.

وليس له أن يبخَلَ، لأنه أقلُّ الناس عُذرًا في تخوُّف الفقر.

وليس له أ، يكونَ حقُودًا، لأنّ خَطَرَه[1] قد عَظُم عن مُجارَاة[2] كل الناس.

وليس له أن يكون حلاّفًا. وأحقُّ الناس بإتِقّان الإيْمان الملوكُ. فإنّما يحمِل الرجلَ على الحَلِف إحدى هذه الخصال:

إمّا مَهانة[3] يجدها في نفسه، وضَرَعٌ[4] وحاجةٌ إلى تصديق الناس إياه.

([1]) أي قدره وجاهه.

([2]) لعل الأفضل بالراء المهملة.

([3]) المذلة.

([4]) الخضوع والاستكانة.

وإمّا عِيٌّ[١] بالكلام، فيجعلُ الإيْمانَ له حَشْواً ووصلًا.

وإمّا تُهَمَةٌ قد عَرَفها من الناس لحديثه[٢]، فهو يُنْزِل نفسهَ منزلةَ مَنْ لا يُقْبَل قولُهُ إلا بعد جَهْد اليمين[٣].

وإمّا عَبَثٌ[٤] بالقول وإرسالٌ لِلّسانِ على غير رَويّة ولا حُسْن تقدير، ولا تعويدٍ له قولَ السَّداد والتثبُّت.

بَابُ

ى عَيْبَ على الملك في تعيُّشه وتنعُّمه ولَعِبِهِ ولَهْوِهِ، إذا تعاهد[٥] الجسيم من أمره بنفسه وأحكمَ المهمَّ، وفوّض ما دُونَ ذلك إلى الكُفاة[٦].

* * *

كلُّ أحدٍ حقيقٌ– حين ينظر في أمور الناس– أن يَتهِم نَظَرَهُ بعيْن الرِيبة[١]، وقلبَه بعيْن المقت[٢]. فإنهما يُزَيِّنان الجَوْر، ويحملان على الباطل، ويُقَبِحان الحَسَنَ، ويُحَسِّنان القبيحَ.

---

(١) هو عدم اهتداء الإنسان لوجه مراده، أو عجزه عنه، أو عدم قدرته على التلفظ للكنة في لسانه.

(٢) أي علمه بأن الناس لا يصدقون حديثه بل يتهمونه فيه.

(٣) أي المبالغة في اليمين. قال تعالى: "وجهد إيمانهم" أي بالغوا في اليمين واجتهدوا.

(٤) أي خلط.

(٥) تعهد الشيء وتعاهد أي تفقده.

(٦) أي الذين يكفونه ذلك. وهذا اللفظ جمع، ومفرده كاف. وأما الأكفاء "بسكون الكاف وفتح الفاء" فمفرده كفء ومعناه الذي توفرت فيه الكفاءة.

وأحقُ الناي باتّهام نظره بعيْن الرِيبة وعيْن المقتِ السلطانُ الذي ما وقع في قلبه رَبَا[٣] مع ما يفيض له من تزيين القُرناء والوزراء.

وأحق الناس بإجبار نفسه على العدل في النظر والقول والفعل الوالي الذي ما قال أو فعل، كان أمرًا نافذًا غيرَ مردود.

* * *

لِيَعْلم الوالي أنّ الناس يَصِفُون الوُلاة بسُوءِ العهد ونِسيان الوُدّ. فَلْيُكابِرْ نقْضَ قولهم! ولْيُبْطل عن نفسه وعن الوُلاة صفاتِ السوء التي يُوصفون بها.

بَابُ

حقُ الوالي أنْ يتفقد لطيفَ أمور رعيته، فضلًا عن جسيمها. فإن لِلطيف موضعًا يَنْتفِع به، وللجسيم موضعًا لا يَستغنيِ عنه.

* * *

لِيتفقدِ الوالي– فيما يتفقد من أمور رعيّته– فاقة الأخبار والأحرار منهم، فليعمَلْ في سدّها! وطغيانَ السفلة منهم، فليقمَعْه! ولْيَسْتَوْحِشْ من الكريم الجائع واللئيم الشبعان! فإنما يَصُول الكريمُ إذا جاع، واللئيمُ إذا شبِع.

---

(١) بكسر الراء أي التهمة والظنة. وهي بمعنى الريب "بفتح الراء وسكون الياء".

(٢) البغض.

(٣) أي زاد.

بَابُ

لا ينبغي للوالي أن يحسُد الولاة إلا على حسن التدبير.

ولا يحسُدنّ الوالي مَن دونه. فإِنّه أقلُّ في ذلك عُذرًا من السُّوقة التي إنّما تحسُدُ مَن فوقها.

وكُلٌّ لا عُذْرَ له.

بَابُ

لا يلومَنَّ الوالي على الزَّلّة مَنْ ليس بمُتَّهَم عنده في الحرص على رضاه، إلّا لَوْمَ أدَبٍ وتقويم! ولا يعدِلنَّ بالمجتهد في رضاه البصيرِ بما يأتي، أحدًا.

فإنّهما إذا اجتمعا في الوزير والصاحب، نام الوالي واستراح، وجُلِبت إليه حاجاته وإنْ هَدَأ عنها، وعُمِل له فيها بِهمةٍ وإنْ غَفَلَ عنها.

* * *

لا يُولعَنّ الوالي بسُوءِ الظّنّ لقول الناس! ولَيجْعلْ لحسن الظّنّ على العمل بعد التأنّي فيه أحسنُ من الإمساك عنه بعد الإقدام عليه

وكلُّ الناس محتاجٌ إلى التثبُّت.

وأحوجُهم إليه ملوكُهم الذين ليس لقولهم وفعلهم دافعٌ، وليس عليهم مستحِثٌ.

بَابُ

لِيَعْلمِ الوالي أنّ من الناس حُرصاءَ على زِيِه[1]، إلا مَن لا بالَ له! فلْيَكُنْ للدِين والبِرّ والمُرُوءَة عنده نَفاقٌ، فيتكسِدُ بذلك الفُجُورَ والدناءَةَ في آفاق الأرض.

بَابُ

جِماع[2] ما يحتاج إليه الوالي من أمر الدنيا رأيان: رأي يُقَوّى به سلطانَه، ورأيٌ يُزيّنه في الناس.

ورأْى القوة أحقّهما بالتبدية وأوْلاهما بالأَثَرَة[3].

ورأى التزيين أحضرهما حلاوةً وأكثرهما أعوانًا.

مع أن القوّةَ من الزينة، والزينة من القوّةِ. ولكنّ الأمر يُنْسَب إلى مُعْظَمِه وأصله.

---

(1) أي الشبه به في هيئته.

(2) جماع الأمر (بكسر الجيم) جمعه.

(3) أي الاختيار والتفضيل.

٢- صحبة السلطان

بَابُ

إنِ ابْتُلِيت بصحبة السلطان، فعليك بطول المواظبة[١] في غير معاتبة، ولا يُحْدِثَنَّ لك الاستئناس به غفلةً ولا تهاونًا.

* * *

إذا رأيتَ السلطان يجعلك أخًا فاجعلْه أَبًا، ثم إن زادك فزدْهُ.

بَابُ

إنِ استطعت أنْ لا تصحَبَ مَن صَحِبتَ مِنَ صَحِبْتَ مِنَ الوُلاة إلا على شُعْبة من قرابة أو مودَّة، فافعلْ. فإن أخطأك ذلك، فاعلم أنّك إنّما تعمَل على السُّخرة.

بَابُ

إنِ استطعت أنْ تجعل صُحْبَتَك لمن قد عَرَفَك بصالح مُرُءَتك وصحّة دِينك وسلامة أُمورك قبل ولايته، فافعلْ.

---

(١) ش: المرابطة. الأمير شكيب: الرابطة. واهمال الميم سهو من المطبعة.

فإنّ الوالي لا عِلْمَ له بالناس إلا ما قد عَلِمَ منهم قبل ولايته. فأما إذا وَلِي، فكلُّ الناس يلقاه بالتزيُّن والتصنُّع، وكلَّهم يحال لأن يُثنيَ عليه عنده بما ليس فيه. غير أنّ الأنذال والأرذال هم أشدُّ لذلك تصنُّعًا وأشدُّ عليه مثابرة وفيه تمحُّلًا.

فلا يمتنع الوالي– وإنْ كان بليغ الرأْي والنظر– من أن يَنْزل عنده كثيرٌ من الأشرار بمنزلة الأخيار، وكثيرٌ من الخانة[1] بمنزلة الأمَنَاء، وكثيرٌ من الغَدَرَةِ[2] بمنزلة الأوفياء؛ ويغَطى عليه أمرُ كثير من أهل الفضل يصونون أنفسهم عن التمحُّل والتصنُّع.

بَابُ

إذا عَرفتَ نفسَك من الوالي بمنزلة الثقة، فاعزلْ عنه كلامَ المَلصق، ولا تُكْثَرنَّ من الدعاء له في كل كلمة. فإنّ ذلك شبيه بالوَحْشة والغُربة: إلا أنْ تُكلِّمه على رؤوس الناي، فلا تألُ[3] عمّا عظَّمّة ووقره.

* * *

لا يعرِفَنَّك الوُلاةُ بالهوَى في بلدٍ من البُلدان ولا قبيلة من القبائل، فيُوشِكُ أنْ تحتاجَ فيهما إلى حكاية أو شَهادة، فتُتَّهَمَ في ذلك.

---

(1) جمع خائن. مثل الخونة والخانين.

(2) أي الغادرين.

(3) أي لا تقصر تقصيرًا.

فإذا أردتَ أنْ يُقْبل قولُكَ، فصّحِحْ رأيك ولا تَشُوبَنَّه بشيءٍ من الهوى. فإنّ الرأْي الصحيح يقبله منك العدوُّ، والهوَى يردُّه عليك الولَد والصديق.

وأحقُّ مَن احترستَ منه من أنْ يَظُنَّ بك لَعِبٌ ولَغْوٌ الرأْي بالهَوى، الولاةُ. فإنَّها بمنزلة خديعة وخيانة وكُفرٍ عندهم.

بَابُ

إن ابتُلتَ بصُحْبة والٍ لا يُريد صلاح رعيّته، فاعلم أنك قد خيّرتَ بين خَلَّتين ليس منهما خِيَارٌ:

إما المَيْلُ مع الوالي على الرعيّة، وهذا هلاك الدِين.

وإما المَيْل مع الرعيّة على الوالي، وهذا هلاك الدنيا. ولا حيلة لك إلا المَوْت أو الهَرَب.

* * *

اِعلمْ أنه لا ينبغي لك– وإن كان الوالي غيرَ مَرْضِيّ السِيرة، إذا عَلِقَتْ حبالُك بجباله– إلا المحافظةُ عليه، إلاّ أن تجدَ إلى الفِراق الجميل سبيلًا.

* * *

تَبَصَّرْ ما في الوالي من الأخلاق التي تُحِبُّ له والتي تَكْرَهُ، وما هو

عليه من الرأْي الذي تَرْضَى له والذي لا تَرْضَى. ثم لا تُكابِرَنَّه بالتحويل له عما يُحِبُّ ويَكْرَهُ إلى ما تُحِبُّ وتَكْرَهُ. فإنّ هذه رياضة صَعْبة تحملُ على التنائي[1] والقِلَى[2].

فإنك قلَّما تقدِرُ على ردِّ رجلٍ عن طريقةٍ هو عليها بالمكابرة والمفإنكَ قلما تقدرُ على ردّ رجلٍ عن طريقةٍ هو عليها بالمكابرة والمناقضةِ، وإن لم يكن ممن يتجمحُ بهِ عز السلطانِ. ولكنكَ تقدرُ على أن تعينهُ على أحسنِ رأيهِ، وتُسددهُ فيه وتزينهُ، وتقويهِ عليهِ، فإذا قَويَتْ منهُ المحاسنُ كانت هي التي تكفيكَ المساوئَ. وإذا استَحَكَمتْ منهُ المحاسنُ، كانت هي التي تكفيك المساوئَ. وإذا استَحْكَمَتْ منه ناحيةٌ من الصوابِ، كان ذلكَ الصوابُ هو الذي يُبَصِره مواقعَ الخطأ بألطفَ من تبصيركَ وأعدلَ من حُكمكَ في نفسهِ. فإنّ الصوابَ يُؤَيدُ بعضهُ بعضاً ويدعو بعضهُ إلى بعض حتّى تستحكَم لصاحبهِ الأشياءُ، ويَظْهَرَ عليها بتحكيمِ الرأي، فإذا كانت لهُ مكانةٌ من الأَصالةِ اقْتَلعَ ذلك الخطأ كلَّه.

فاحفظ هذا البابَ وأحكمهُ.

بَابُ

لا يكونَنَ طَلَبُكَ ما عند الوالي بالمسألةِ، لا تستبطِئْهُ، وإن أبطأ عنك. ولكنِ أطلُبْ ما قِبَلهُ بالاستحقاق لهُ، واسْتأنِ به وإن طالتِ الأناةُ منهُ. فإنك إذا استحققتَه أتاكَ عن غيرِ طلبٍ، وإن لم تستبطئهُ كان أعجَلَ لهُ.

---

(1) أي التباعد.

(2) غاية البغض والكراهة.

بَابُ

لا تُخبِرنَ الوالي أن لكَ عليهِ حقاً، وأنكَ تَعْتَدُّ عليهِ ببَلاء. وإنِ استطعتَ ألا ينسى حقَّك وبلاءك فافعل. وليَكُنْ ما يُذِكره بهِ من ذلك تجديدكَ لهُ النصيحةَ والاجتهادَ، وألا يزالَ ينظُرُ منكَ إلى آخِرٍ يُذَكِره أوَّل بلَائكَ.

واعلم أن السلطانَ إذا انقطعَ عنه الآخرُ نسي الأوَّلَ، وأنّ أرحامَهم مقطوعةٌ وحِبالهم مصْرومة، إلا عمَّن رَضُوا عنه وأغنى عنهم في يومهم وساعتهم.

إياك أن يقعَ في قلبك تعتبٌ على الوالي أو استزراءٌ لهُ.

فإنهُ أيُّ أثَرٍ يقعَ في قلبك بَدَا في وجهك، إن كنتَ حليماً، وبَدَا على لسانكَ، إن كنتَ سفيهاً.

فإنْ لم يزَدْ ذلكّ على أنْ يظهرَ في وجهك لآمَنِ الناس عندك، فلا تأْمَنَنَّ أن يَظهرَ ذلك للوالي.

فإنّ الناس إلى السلطان بعوراتِ الإخوانِ سِراعٌ، فإذا ظهر ذلك للوالي، كان قلبهُ هو أسرعَ إلى التَّعَتُّب والنُّفورِ والتغيُّرِ من قلبكَ. فَمَحقَ[1] ذلك حسناتِكَ الماضية، وأشرفَ بكَ على الهلاك، وصرتَ

([1]) أي بطل لحسنات الماضية ومحاها وفي ش: محا.

تعرفُ أمركَ مستدبراً وتلتمسُ مرضاةَ سلطانك مستصعِباً. ولو شئت كنتَ تركتَه– بإذن الله– راضيًا، وازددتَ من رضاهُ دُنُواً.

بَابُ

اعلم أن أكثرَ الناسِ عدواً جاهداً[١] حاضراً جريئاً مُوانباً، وزيرُ السلطانِ ذو المكانةِ عندهُ. لأنهُ منفوسٌ[٢] عليه مكانهُ كما يُنْفسُ[٣] على السلطان. ومحسودٌ كما يُحْسَدُ. غير أنه يُجْتَزَأُ عليه، ولا يُجْتَرَأ على السلطان. لأن من حاسديه أحباءً[٤] السلطانِ وأقاربهُ الذين يشاركونهُ في المداخلِ والمنازلِ. وهم وغيرُهم من عَدُوّهِ حُضورٌ، وليسوا كعدوّ السلطانِ النائي عنهُ والمُكتَتِمِ منهُ. وهم لا ينقطعُ طمعهم من الظَّفَر بهِ، فلا يَغْفُلونَ عن نَصبِ الحبائلِ لهُ.

فاعرف هذهِ الحالَ، والبَسْ لهؤلاء القومِ– الذينَ هم أعداؤكَ– سلاحَ الصحةِ والاستقامة، ولُزومَ المحجةِ[٥] فيما تُسِرُّ وتُعِلنُ. ثم رَوّح عن

---

(١) أي مجدًا ومجتهدًا في العداوة. ومنه من باب المبالغة قولهم "جهد جاهد".

(٢) أي يتنافسون للحصول على مكانته. والشيء المنفوس هو الذي تكثر الرغبة فيه.

(٣) أي لإبراء المنافسون أهلاً له وجديرًا به.

(٤) أي أفراد أسرته وبنو حية الذين هم وإياه من بطن واحد. وقد اردف المؤلف هذه الكلمة بقوله "وأقاربه" تفسيرًا لمراده. وإلا فإن الأحباب لا يتقدمون في الذكر على الأقارب. ولذلك عدلت عن متابعة النسخة السلطانية والعثمانية وطبعة الأمير شكيب، فلم اعتمد لفظة أحباء بتشديد الباء بمعنى أحباب، خصوصًا وقد رأيت الشيخ الشنقيطي ضبط هذه الكلمة بالياء المثناة التحتية بعد وضع علامة السكون على الحاه.

(٥) ووردت هذه اللفظة بغير الميم في ش: وفي ع: أي الحجة، ولكن الرواية التي اعتمدناها عن النسخة السلطانية هي أفضل وأكثر دلالة على المقصود. والسياق يعينها.

قلبك حتّى كأنّكَ لا عدوَّ لك ولا حاسدَ.

وإن ذكرك ذاكرٌ عند السلطانِ بسوء في وجهكَ أو في عينيكَ فلا يرين السلطانُ ولا غيرهُ منكَ اختلاطاً لذلك ولا اغتياظاً ولا ضجراً؛ ولا يَقَعَنَّ ذلك في نفسك موقعًا يُكْرِثك[1].

فإنّه إنْ وقع منك ذلك المؤقِعَ، أدخل عليك أمورًا مشتبِهة بالسِّفْلَة ، مُذكِّرة لما قال فيك العائبُ. وإن اضطَرَّك الأمرُ في ذلك إلى الجواب، فإيّاك وجوابَ الغَضَب والانتقام! وعليك بجواب الحُجة، في حِلْم ووقار!

ولا تَشُكَّنَّ في أنّ الغَلَبَةَ والقوَّةَ للحليم أبدًا.

* * *

لا تتكلَّمَنَّ عند الوالي كلامًا أبدًا إلا لعنايةٍ، أو يكونَ جوابًا لشيء سُئِلتَ عنه. ولا تحْضِرَنَّ عند الوالي كلامًا أبدًا لا تُعْنَى به، أو تؤمَرَ بحضوره.

* * *

ولا تَعُدَّنَّ شتْمَ الوالِي شَتْمًا، ولا إغلاظَهُ إغْلاظًا، فإن ريحَ العِزّة قد تَبْسُط اللسان بالغِلظة في غير سُخطٍ ولا بأس.

---

(1) كرثه الغم يكرثه– "بكسر الراء وبضمها" اشتد عليه كأكرثه.

بَابُ

جانِبْ المسخوط عليه والظِنينَ[1] به عند السلطان. ولا يجمعنَّك وإياه مجلس ولا منزلٌ! ولا تُظهرنّ له عُذْرا، ولا تُثْنِيَنَّ عليه خيرًا عند أحد من الناس!

فإذا رأيتَه قد بَلَغَ من الإعتاب[2] مما سُخِط عليه فيه ما ترجُو أ، تُلِينَ له به قلب الوالي، واستَيقنت أنّ الوالي قد استَيقْن بمباعدتك إياه وشدَّتِكَ عليه عند الناس، فضعْ عُذْره عند الوالي واعْمَلْ في إرضائِه عنه، في رفق ولطفٍ.

* * *

لِيَعْلِم الوالي أنك لا تستنكِفُ عن شيء من خدمته. ولا تَدَعْ مع ذلك أنْ تُقدّمَ إليه القولَ– على بعض حالاتِ رضاهُ وطيبِ نفسِهِ– في الاستعفاء من الأعمال التي هي أهلٌ أنْ يَكْرَهَا ذو الدين وذو العقل وذو العِرْض وذو المُرُوَّة: من ولايةِ القتل والعذاب وأشباه ذلك.

* * *

إذا أصبتَ الجاهَ والخاصة عند السلطان، فلا يُحْدِثَنَّ لك ذلك تغيُّرًا على أحد من أهله وأعوانه، ولا استغناءَ عنهم. فإنّك لا تدري متى

([1]) الظنه بالكسر وتشديد النون المفتوحة التهمة، والظنين المتهم.

([2]) الأعتاب الرجوع عن الإساءة.

تَرى أدَنى جَفَوة أو تغُّير، فَتذِلَّ لهم.

وفي تلوُّن الحال عند ذلك من العار ما فيه.

* * *

لِيكنْ مما تُحكِمُ من أمرك أنْ لا تسارَّ أحدًا من الناس ولا تهْمسَ إليه بشيءٍ تُخْفيه عن السلطان أو تُعلنُه. فإنّ السِّرَار[١] مما يُخَيِّلُ إلى كل من رآه من ذي سلطان أو غيره أنَّه المرادُ به. فيكون ذلك في نفسه حَسِيفةً[٢] ووَغْرًا[٣] وثُقْلًا.

بَابُ

لا تتّهاونَنَّ بإرسال الكَذْبَة[٤] عند الوالي أو غيره في الهزل، فإنها تُسرع في إبطال الحقّ وردّ الصدق مما تأتي به.

* * *

تنكبْ فيما بينك وبين السلطان، وفيما بينك وبين الإخوان، خُلُقًا قد عَرَفناه في بعض الوزراء والأعوان وأصحاب الابَّهات[٥] في ادِّعاء الرجُلِ– عند ما يَظْهَرُ من صاحبه من حُسْن أثر أو صواب رأي– أنه هو

(١) أي المسارة بتشديد الراء وهي أن يكلم الرجل صاحبه في أذنه.

(٢) الحسيفة العداوة. وفي ش: وع: "الحيكة" وفسرها الأمير شكيب بالحقد والعداوة وهي جيدة أيضًا.

(٣) الوغر: الحقد والضغن والعداوة والضغن والعداوة والتوقد من الغيظ. ومنه قولهم: وغر صدره وأوغر صدره.

(٤) أي المرة الواحدة من قول الكذب.

(٥) الأبهة: العظمة. ومن معانيها أيضًا البهجة والكبر والنخوة.

عَمِل في ذلك وأشار به، وإقراره بذلكّ إذا مدحه به مادحٌ. بل[1] وإن استطعتَ أن تُعرِف صحابك أنك تَنْحَلُهُ صوابَ رأيك– فضلًا عن أن تدَّعِيَ صوابَهُ– وتسنِدَ ذلك إليه وتزَيّنَهُ به، فافعل.

فإنّ الذي أنت آخذٌ بذلك أكثرُ مما أنت مُعْطٍ بأضعافٍ.

بابُ

إذا سأل الوالي غيركَ فلا تكونَنَّ أنت المُجيبَ عنه. فإن استلابك الكلامَ خِفَّةٌ بك، واستخفاف منك بالمسؤول وبالسائل.

وما أنت قائل إن قال لك السائلُ: ما إياك سألتُ! أو قال لك المسؤُول عند المسألة يُعادُ[2] له بها: دونك فأجب!

وإذا لم يقصد السائل في المسألِة لرجلٍ واحد وعَمَّ بها جماعة مَن عنده، فلا تُبادِرنَّ بالجواب، ولا تُسابِق الجُلَساء، ولا تُواثِبْ بالكلام مُواثَبةً. فإنَّ ذلك يجمعُ مع الشّيْنِ التكلّفَ والخِلفّةَ.

فإنّك إذا سبَقْتَ القومَ إلى الكلام، صاروا لكلامِكَ خُصَمَاءَ[3] فتعقبوه بالعيْب والطْعن. وإذا أنتَ لم تعجَل بالجواب وخلَّيْتَه للقوم، اعْتَرَضْتَ أقاويلَهم على عَيْنِك، ثم تَدَبَّرْتَهَا وفكَّرْتَ فيما عندَك، ثم هيَّأتَ من تفكيرك ومحاسن ما سمِعتَ جوابًا رَضيًا، ثم استَدْبَرْتَ به أقاويلَهم

(١) لم يرد لفظ "بل" في النسخة السلطانية. وهو وارد في ش:

(٢) أي في حالة أعادة السائل بمسألته على المسؤول الأول، دون التفات إلى جوابك.

(٣) الخصماء جمع خصيم. وفيه دليل على التشدد في الخصومة والمعارضة والمجادلة واللدد.

حين تُصيخُ إليكَ الأسماعُ ويهدأُ عنك الخُصُومُ[١].

وإن لم يَبْلُغْكَ الكلامُ حتى يُكْتَفَى بغيرك، أو ينقطعَ الحديث قبلَ ذلك، فلا يكونُ من العَيْبِ عندَك ولا من الغَبْنِ في نفسك فَوْتُ مافاتك من الجواب.

فإنَّ صيانَة القول خيرٌ من سُوءِ وضعهِ، وإنَّ كلمةً واحدةً من الصوّاب تُصِيبُ موضِعَها خيْرٌ من مائة كلمة تقولُها في غير فُرَصِها ومواضعها. مع أنَّ كلاَم العَجَلة والبدارِ[٢] مُوكلٌ به الزَّلَل وسوءُ التقدير، وإنْ ظَنَّ صاحبهُ أنَّه قد أَتقنَ وأَحْكَمَ.

واعلمْ أنَّ هذه الأمور لا تُدْرَك ولا تُمْلَكَ إلا بِرُحْب الذَّرْعِ عند ما قيل وما لم يُقَلْ، وقلَّةِ الإعظام لما ظهر من المرُوءةِ أو لم يَظْهَر، وسَخاوَةِ النفس عن كثير من الصّواب، مَخَافةَ الخلاف، ومَخَافَة العَجَلَة ومَخَافَة الحَسَد ومَخَافَة المِرَاءِ.

بَابُ

إذا كلَّمَك الوالي فاصْغِ إلى كلامه. ولا تَشغْلَ طَرْفك[٣] عنه بنظرٍ إلى غيره، ولا أطْرافَك[٤] بعملٍ، ولا قلْبَك بحديث نفسٍ.

---

(١) الخصوم مفرده بمعنى المحاجج والمجادل والمعارض.

(٢) البدار: المعالجة والاستباق.

(٣) أي عينك التي تنظر بها.

(٤) أي جوارحك من الأيدي والأرجل.

واحذرْ هذه الخَصْلَةَ من نفسك، وتعاهدْها بجَهدك.

بَابُ

أُرْفُقْ بُنظَرائك من وزراء السلطان وأَخِلائِهِ ودُخلائِه. واتخِذْهم إخوانًا، ولا تتَّخذْهم أعداء. ولا تنافِسهْم في الكَلِمة يتقرَّبون بها أو العمل يُؤمَرُون به دُونَك.

فإنَّما أنت في ذلك أَحَدُ رَجُلَيْن:

إمّا أن يكونَ عندك فَضْلُ على ما عندَ غيْرِك، فسَوْف يَبْدُو ذلك ويُحْتاجُ إليه ويُلْتَمسُ منك، وأنْتَ مُجْمِلٌ(١).

وإمَّا أنْ لا يكونَ ذلك عندك، فما أَنْتَ مُصِيبٌ من حاجتك عند وزراء السلطان بمُقارَبَتِكَ ومَلائَمِتك إيّاهم وملاينتك وما أنت.

وما أنتَ واجد(٢) في موافَقَتِك إيّاهم ولِينِك لهم من مُوافَقَتِهم إياك ولِينهم لك أَفْضَلُ ممّا أنت مُدْرِكٌ بالمنافسة والمنافرة لهم.

* * *

(١) أي محسن فاعل للجميل.

(٢) ينبغي وصل هذين السطرين ببعضهما ليكون الكلام عبارة واحدة مؤلفة من جملتين معطوفتين. فيكون قوله "أفضل" خبرًا للفظة "ما" المكررة في تلك الصفحة مرتين.

لا تَجْتَرِئَنَّ على خلاف أصحابِك عند الوالي، ثِقَةً باعْترافهم لك ومعرفَتِهم بفضل رأْيِك.

فإنَّا قد رأيْنَا الناسَ يَعْتَرِفون بفضل الرجُل وينقادون له ويتعلَّمون منه، وهم أَخْلِيَاءُ. فإذا حَضَرُوا السلطانَ، لم يَرْضَ أَحدٌ منهم أنْ يُقِرَّ لَهُ ولا أنْ يكونَ له عليه في الرأي والعلْم فضلٌ، فاجتَرَؤُا عليه بالخِلاف والنَّقْضِ.

فإنْ ناقضهم، صار كأَحدِهم. وليس بواجدٍ في كل حِين سامعًا فَهِمًا أو قاضيًا عَدْلاً.

وإنْ تَرَكَ مُنَاقَضَتهم، كان مغلوبَ الرَّأْي مردُودَ القول.

* * *

إذا أَصَبْتَ عند السلطان لُطْفَ منزِلَةٍ – لِغَناءٍ[1] يَجِدُه عندك أو هوىً يكون له فيك– فلا تَطْمَحَنَّ كلَّ الطِّماح ولا تُزَيّنَنَّ لك نفسُك المزايلةَ له عن أليفِهِ وموضِعِ ثِقِتِهِ وسِرِهِ قَبْلَكَ، تُريدُ أنْ تقلَعَهُ وتَدخُلَ دونه. فإنّ هذه خَلَّة من خلال السَّفَهِ قد يُبْتَلَى بها الحُلَماءُ عند الدُّنُوّ من السلطان حتى يُحدّثَ الرجلُ منهم نفسَهُ أن يكونَ دُونَ الأَهْلِ والوَلد: لفضلٍ يَظُنُّه بنفسه أو نَقْصٍ يَظُنُّه بغيره.

(1) الغناء بالفتح النفع.

ولكلّ رجُلٍ من الملوك أو ذي هيئةٍ من السُّوقَة أَلِيفٌ وأنيسٌ قد عَرَفَ رُوحُه واطَّلَع قلْبُه على قلْبِهِ. فليستْ عليه مِؤُونة في تبذُّل يتبذلُهُ عنده، أو رأْيٍ يسْتَبِينُ[1] منه، أو سرٍ يُفشيه إليه. غير أن تلك الأَنَسَةَ وذلك الأُلْف يَسْتخرِج من كلّ واحد منهما ما لم يكن لِيَظْهَرَ منه عند الانقباض والتشدُّد. ولو التَمَسَ مُلْتمِسٌ مثلَ ذلك عند مَن يستأْنِف[2] ملاطفتَهُ ومؤُانسته ومناسمته[3]– وإنْ كان ذا فضل في الرّأي وبَسْطةٍ في العلم– لم يجَدْ عنده مِثلَ ما هو مُنتفِعٌ به ممَّن هو دون ذلك في الرأْي ممن قد كُفِي مؤانستَهُ ووقع على طباعه.

لأَنَّ الأَنَسَةَ رَوْحٌ[4] للقلوب، وأنّ الوَحْشَةَ رَوْع[5] عليها. ولا

([1]) وردت هذه الكلمة في جميع النسخ هكذا "يستزله" بمعنى يطلب زلته وسقطه. فيكون المعنى أنه لا بأس ولا غبار على الرجل إذا اقضى إليه صاحبه برأي وكان في لذلك الرأي سقطة وخطأ فاحش لارتفاع الكلفة بينهما وفي ذلك مبالغة في الدلالة على الاختصاص والالتصاق اللذين يمتنع معهما خوف الملامة أو الانتقاد. وقد أشار العلامة المرحوم الشيخ إبراهيم اليازجي بتصحيحها هكذا. "يستنزله" ووافقه على ذلك الأمير شكيب. على أن التعبير "باستنزال الرأي" ليس من المألوف فضلًا عن كونه ليس من الأمور التي تدل على التبسط والتبذل وامتناع الكلفة وارتفاع المؤونة. وأما النسخ السلطانية فقد وردت فيها الرواية التي اعتمدناها في المتن " يستبين منه " وبها يستقيم المعنى وينتظم السياق.

([2]) الاستئناف والائتناف معناهما الابتداء. ومن ذلك الروضة الأنف والكلأ الانف "بضم الالف والنون فيهما" بمعنى الذي لم يرعه أحد. ومن ذلك أيضًا كأس أنف للتي لم يشرب بها قبل ذلك، كأنه استؤنف شربها أي ابتدئ بشربها لأول مرة. وأما في عصرنا هذا فقد جرت لغة القضاء والمحاكم على أن الاستئناف يكون مراجعة الحكم مرة ثانية لنسخة أو تأييده.

([3]) المناسمة مثل المنامسة بمعنى المسارة.

([4]) راحة.

([5]) فزع.

يَلْتَاطُ[1] بالقلوب إلاّ ما لاَنَ عليها. ومَنْ استقبل الأُنس بالوَحشة، استقبلَ أمرًا ذا مَؤثونة[2].

فإذا كلَّفتْك نفسُك السُّمُوَّ إلى منزلة من وصفتُ لك، فاقْدَعْها[3] عن ذلك بمعرفة فضل الأَليف والأَنيس. وإذا حدَّثتْك نفسُك أو غيرُك– ممن لعَّلهُ أَنْ يكون عنده فضل في مُرُوءَة– أنّك أَوْلىَ بالمنزِلةِ عند السلطان من بعض دُخَلائه وثِقاته، فاذْكُرِ الذي على السلطان من حَقِّ أليفه وثقته وأَنيسه في التكرِمة والمكانة والرأْي، والذي يُعنيه على ذلك من الرأْي الذي يَجِدُه عند الأليف والأنيس مما ليس واجدًا عند غيره.

فليكنْ هذا تتحفَّظُ فيه على نفسك وتعرِفُ فيه عذر السلطان ورأيه.

والرأيُ لنفسك مِثْلُ ذلك، إنْ أرادك مُريدٌ على الدخول دون أليفك وأنيسك وموضع ثقتك وسِرّك وجِدّك وهزلك.

اِعلمْ أنه يكاد يكون لكل رجل غالبة[4] حديثٍ لا يزال يُحدِّثُ به: إمَّ عن بلد من البُلدان أو ضَرْبٍ من ضروب العلم أو صنِف من صنوف

([1]) التاط الشيء بقلبه يلتاط التياطًا لصق به من فرط الحب.

([2]) المؤونة على وزن مقولة من الابن وهو التعب والشدة والثقل على الإنسان. واللفظة مشتقة من الأون بمعنى الإعياء كالتعب. هذا واعلم أن الأين معناه التعب والاعياء أيضًا.

([3]) أي فازجرها وامنعها.

([4]) هي اللازمة، في اصطلاح العامة.

الناس أو وجه من وجوه الرّأي. وعندما ما يُغْرَمُ به[١] الرجل من ذلك، يبدُو منه السُّخْف ويُعرَف منه الهوَى.

فاجتنبْ ذلك في كل موطنٍ، ثُمَّ عند السلطان خاصّةً.

بَابُ

لا تشْكونَّ إلى وزراء السلطان ودُخلائِهِ ما اطَّلَعتَ عليه من رأْي تَكْرهُهُ له. فإنّك لا تَزيد على أن تفطِنهم لهواه أو تُقَرِبهم منه وتُغريهُم بِتَزْيينِ ذلك له والميلِ عليك معه.

بَابُ

اِعلمْ أن الرجُلَ ذا الجاه عند السلطان والخاصةَّ لا مَحالَة أن يرى من الوالي ما يخالفه من الرأْي في الناس والأمور. فإذا آثر أن يَكَرهَ كلَّ ما خالفه، أوشك أن يمتعِضَ[٢] من الجَفْوَة يراها في المجلس، أو النَّبْوَة في الحاجة، أو الرَّدّ للرأي، أو الإدناء لمن لا يهوىَ إدناءَه، أو الإقصاءِ لمن يكْرَهُ إقصاءَه.

فإذا وقعتْ في قبله الكراهِيَةُ، تغيّر لذلك وجهُه ورأْيه وكلامه حتى يبدُو للسلطان وغيرهِ. فيكون ذلك لفساد منزلته ومُرُوءَته سببًا وداعيًا.

---

(١) أي يتعلق به غرامًا وولوعاً.

(٢) يتكدر ويتنغص.

فَذلّل نفسَك باحتمال ما خالفك من رأي السلطان، وقرِرها على أنّ السلطان إنما كان سلطانًا لتتَّبِعَهُ في رأْيِهِ وهواهُ وأمرِهِ، ولا تكلِفْه اتّباعَك وتغضَبَ من خلافهِ إياك.

بَابُ

اِعلمْ أنَّ السلطانَ يقبَلُ من الوزراء التبخيلَ [1]ويَعُدُّه منهم شفقةً ونظرًا له، ويحمَدُهم عليه.

فإنْ كان جواداً وكنتَ مُبَخّلًا[2]، شِنْتَ صاحبك بفساد مُرُوءَته؛ وإن كنتَ مسَخّياً، لم تأْمَنْ إضرار ذلك بمنزلتك عنده.

فالرأي لك تصحيحُ النصيحة على وجهها، والتماسُ المخلَص من العيْب واللائِمة فيما تترك من تبخيل صاحبك بأن لا يعرِف منك فيما تدعوه إليه ميلًا إلى شيء من هواك ولا طلبًا لغير ما ترجو أن يَزِينَهُ وينفَعَهُ.

بَابُ

لا تكونَنَّ صحبتُك للسلطان إلا بعد رياضة منك لنفسك على طاعتهم في المكروه عندَك، وموافقتِهم فيما خالفك، وتقديرِ الأمور على أهوائهم دونَ هواك، وعلى أنْ لا تكتُمَهم سرَّك ولا تستطِلَع ما كتموك، وتُخفَي ما أطلعوك عليه عن الناس كلهم حتى تحْمِي[3] نفسك الحديثَ

([1]) أي مطالبته بالبخل.

([2]) أي تريده على أن يكون بخيلًا.

([3]) أي تمنع.

به، وعلى الاجتهاد في رضاهم، والتلطُّف لحاجتهم، والتثبيت لُحِّتّهم، والتصديق لمقالتهم، والتزيين لرأْيهم، وعلى قلَّة الامتعاض لما فعلوا إذا أساءوا، وترك الانتحال لما فعلوا إذا أحسنوا، وكثرة النشْر لمحاسنهم، وحُسْن السَّتْر لمساويهم، والمقاربةِ لمن قَارَبُوا وإِن كانوا بُعَدَاءَ، والمباعدة لمن باعدوا وإن كانوا قُرَباءَ، والاهتمام بِأمرهم وإنْ لم يهتمُّوا به، والحفظِ لهم وإن ضَيَّعُوا، والذكرِ لهم وإن نَسُوا، والتخفيفِ عنهم من مَؤُونتك، والاحتمال لهم كلَّ مَؤُونةٍ، والرضى منهم بالعفْو، وقلَّةِ الرضى من نفسك لهم إلا بالاجتهاد.

إنْ وجدتَ عن السلطان وعن صحبته غنى، فأَغْنِ عنهما نفسَك، واعتزلْهما جَهْدَك.

فإنَّ من يأخذُ عمل السلطان بحقه، يُحَلْ بينه وبين لذة الدنيا وعمل الآخرة. ومنْ لا يأخُذهُ بحقه، يحتمل الفضيحة في الدنيا والوِزْرَ في الآخرة.

بَابُ

إنّك لا تأْمَنُ أَنَفَةَ[١] السلاطين إنْ أعلمتهم، ولا تأْمَنُ عقوبتهم إن كتمتَهم، ولا تأْمَنُ سَاْوَتهم[٢] إنْ حدَّثْتَهم.

إنّك إن لزِمتَهم لم تأْمَنْ تبرُّمَهم[١] بك، وإنْ زايلتَهم لم تأْمَنْ تفقُّدَهم إياك، وإن استأمرتَهم حملتَ المَؤُونة عليهم، وإنْ قطعْتَ الأمور دونهم لم تأْمَنْ فيها مخالفَتهم.

([١]) الأنف والأنفة "بفتح الالف والنون فيهما": الاستكناف.

([٢]) السلوة هنا بمعنى الملل والسآمة من الحديث.

إنّك لا تأْمَنُ إنْ صدَقْتَهم غَضَبَهم، وإنْ كذَبْتَهم سُخْطَهم.

وإنْ سخطوا عليك نسيتَ سُخْطَ الله تعالى، وإنْ رَضُوا عنك تكلَّفت لرضاهم ما لا تُطيق.

إنْ[2] كنتَ حافظًا إنْ بَلَوْك[3]، حَذِرًا[4] إنْ قرّبوك، أمينًا إن ائتمنوك، تُعَلِّمُهُم وأنت تُريهم أنك تتعلَّم منهم، وتؤَدِبُهم وكأنهم يؤدِّبونك، تشكرُهم ولا تكِلّفُهم الشكرَ، بصيرًا بأَهوائهم، مُؤْثِرًا لمنافعهم، ذليلًا إنْ ضاموك[5]، راضيًا إن أسخطوك: وإلاَّ فالبُعدَ منهم كلَّ البُعدِ! والحَذَرَ منهم كل الحَذَر!

---

(1) أي تضجرهم منك.

(2) ربما كان الأفضل وضع فاء الفصيحة على هذا الحرف. فيقال: فإن كنت حافظًا الخ. ليكون ذلك بمثابة افصاح عما أجمله المؤلف في الفقرات الثلاث المتقدمة التي بحذر فيها الناس من مضار صحبة السلطان هذا وقد وردت تلك الفقرات في النسخة السلطانية كل واحدة في باب على حدته ومنفصلة عن الأخرى. وأما بقية النسخ فليس فيها تبويت على الاطلاق.

(3) اختبروا ما عندك. وفي ع: "ولوك" أي قلدوك الولاية.

(4) وفي ش: "جلدًا" بفتح الجيم وبسكون اللام أي صبورًا حمولًا. وهي رواية لا بأس بها ولكننا نفضل الرواية التي اعتمدناها في المتن، عن النسخة السلطانية. لأن التقرب من الملوك يستلزم الحذر أكثر من التجلد.

(5) وفي ش: و ع: "ظلموك". وهي رواية لا بأس بها.

٣ – في معاملة الأصدقاء

بَابُ

أبْذلْ لصديقك دَمَك ومالَكَ، ولمعرفتك[١] رفدَك ومَحْضَرَك. وللعامة بِشْرَك وتَحننَك، ولعدّوك عَدْلك وإنصافك.

واضْنِنْ على كلّ أحد بدِينك وعرِضِك[٢]، إلا أنْ تُضْطَرَّ إلى بَذْلِ العرِض لوالٍ أو والدٍ. فأما للوَلد فَمَنْ سواه، فلا.

بَابُ

إنْ سمعِت منن صاحبك كلامًا أو رأيتَ منه رأْيا يُعجِبك، فلا تنتحِلْهُ تَزَيُّنًا به عند الناس. واكتفِ من التزيُّن بأن تجتنىَ الصّواب إذا سمِعْتَه، وتنسُبَه إلى صاحبه.

واعلم أنّ انتحالك ذلك مَسْخَطَةٌ لصاحبك، وأَنّ فيه مع ذلك عارًا أو سُخْفًا.

---

(١) أي لمعارفك (Connaissances) الذين لم تصل درجتهم معك إلى درجة الصديق. وقد استعمل ابن المقفع لفظة المعارف أيضًا فيما سيجيء.

(٢) العرض: جانب الرجل الذي يصونه من نفسه وحسبه أن ينتقص ويثلب، سواء كان في نفسه أو سلفه أو من يلزمه أمره. أو موضع المدح والذم منه أو ما يفتخر به حسب وشرف.

فإن بلغ بك ذلك أنْ تُشير برأي الرجُل وتتكلم بكلامه، وهو يسمع، جَمَعْتَ مع الظلم قِلَّةَ الحياء. وهذا من سُوء الأدب الفاشي في الناس.

ومن تمام حُسن الخُلُق والأدب في هذا الباب أن تَسْخُو نفسك لأَخيك بما انْتَحَلَ من كلامك ورأْيِك، وتنسُبَ إليه رأْيَهُ وكلامَهُ، وتَزِينَهُ مع ذلك ما استطعتَ.

* * *

لا يكونَنَّ من خُلُقِك أن تبتدئَ حديثًا ثم تقطعه وتقول: سوف، كأَنَّك رَوَّأْتَ[1] فيه بعد ابتدائك إيّاه. ولْتكن ترويَتِك فيه قبل التفوَّه. فإنَّ احتجان[2] الحديث بعد افتتاحه سُخْف وغمٌّ.

بَابُ

أُخْزُنْ عقلك وكلامك، إلّ عند إصابة الموضع. فإنّه ليس في كلّ حين يَحسُنُ كلُّ صوابٍ. وإنما تمام إصابة الرأي والقول بإصابة موضعه. فإن أخطأَك ذلك، أَدخلتَ المِحنةَ على عقلك وقولك، حتى تأْتيَ به في موضعه. وإن أتيْتَ به في غير موضعه، أَتَيْتَ به وهو لا بَهاءَ ولا طُلاوةَ له.

* * *

(1) روأ في الأمر نظر فيه وتعقبه ولم يعجل بجواب. ومنه: الرويئة والروية للتفكير مع التدبر.
(2) أي حبسه والامتناع عن الاستمرار فيه.

لِيَعْرِفِ العلماء، حين تُجالسهم، أنّك على أنْ تسمَعَ احرصُ منك على أن تقولَ.

* * *

إن آثرتَ أن تُفاخر أحدًا أو تُمازِح مَن تستأنِس إليه في لهْوِ الحديث، فاجعلْ غايةَ ذلك الجِدّ، ولا تعتدْ أن تتكلم فيه بما كان هزْلا. فإذا بلغَ الجِدّ أو قارَبهُ فدَعْهُ.

ولا تَخلِطنَّ بالجْدّ هزْلا، ولا بالهزْل جدّاً. فإنك إنْ خلَطتَ بالجِدّ هزلًا سَخَّفْتَهُ، وإن خلضطتَ بالهزل جِدًا كدرته.

غير أني قد علِمتُ مَوطِنًا واحدًا إنْ قدَرت أن تَستَقبِلَ فيه الجِدَّ بالهزل، أَصَبْتَ الرأي وظَهَرتَ على الأقران: وذلك أنْ يتورَّدَك متورِدٌ بالسَّفَه والغضب وسُوء اللفظ، فتجيبه إجابة الهازل المداعب، يُرحْبٍ من الذَّرع وطلاقه من الوجه وثباتٍ في المنطق.

* * *

إنْ رأيتَ صاحبك مع عدوّك، فلا يُغبَنَّك ذلك. فإنّما هو أحد رجلين:

إنْ كان رجلًا من إخوان الثقة، فأنفعُ مَواطِنة لك أقربُها مع عدوّك: لشرّ يَكُفُه عنك، أو لعورة يسترها منك، أو غائبةٍ يطلّع عليها لك. فأمّا صديقك، فما أغناك أنْ يحضره ذو ثقتك!

وإنْ كان رجلًا من غير خاصّة إخوانك، فبأَيّ حقّ تَقْطَعُهُ من الناس وتُكلِفُه أنْ لا يُصاحبَ ولا يُجالسَ إلاَ من تهوَى؟

* * *

تحفَّظ في مجلسك وكلامك من التطاول على الأصحاب، وطِبْ نفسًا عن كثير ممّا يعرِض لك فيه صوابُ القول والرآي، مداراةٍ لأنْ يظُنَّ أصحابك أنّك إنما تُريد التطاول عليهم.

بَابُ

إذا أقبل إليك مُقبلٌ بِوُدّه فسَرَّك أنْ لا يُدْبِر عنك، فلا تُنْعِم الإقبالَ عليه والتفتحَ له. فإنّ الإنسان طُبع على ضرائبَ لُوْم: فمن شأْنِهِ أنْ يَرَحَلَ عمن لِصقَ به. ويلصَقَ بمن رَحلَ عنه، إلا من حفِظ بالأدب نفسَه وكابر طبعَه.

فتحفَّظْ من هذا فيك وفي غيرك!

بَابُ

لا تُكثِرَنَّ ادعاءِ العلْم في كلّ ما يعرض بينك وبين أصحابك.

فإنّك من ذلك بين فضيحتَين:

إما أن ينازعوك فيما ادّعيْتَ، فيُهْجَمَ منك على الجهالة والسُّخْف[١] والصَّلَف[٢].

وإما أنْ لا ينازعوك ويُخضلُوا[٣] في يديْك ما ادَّعيتَ من الأُمور، فينكشفَ منك التصنُّع والْمَعْجَزَةُ.

* * *

اِستحِ الحياءَ كلَّه من أن تخبر صاحبك أنّك عالمٌ وأنه جاهلٌ: مُصرِحًا أو مُعرِضًا.

وإنِ استطلتَ على الأكفَاءِ[٤]، فلا تثِقنَّ منهم بالصفاء.

بَابُ

إنْ آنَستَ من نفسك فضلًا، فتَطلَّعَ[٥] منك على أن تَذكُرَهُ أو تُبدِيهُ، فاعلمْ أنَّ ظهوره منك بذلك الوجه يقرّر لك فيقلوب الناس من العيْب أَكثَر مما يقدِّر لك من الفضل.

واعلمْ أَنّك إنْ صَبَرْتَ ولم تعجَلْ، ظهر ذلك منك بالوجه الجميل

([١]) السخف: رتة العقل.

([٢]) الصلف: أن يتكلم الإنسان بما يكرهه صاحبه أو يتمدح بما ليس عنده.

([٣]) من التخلية أي الترك.

([٤]) أي المماثلين لك.

([٥]) أي فحملك هذا الفضل على أن تطلعه وتظهره وتبرزه.

الحسنِ المعروف عند الناس.

ولا يَخفَيَنَّ عليك أن حِرص الرجل على إظهار ما عنده وقِلَّة وقاره في ذلك بابُ من أبواب البخل واللوم.

إنّ من خير الأعوان على ذلك على ذلك السخاءَ والتكرُّمَ.

بَابُ

إنْ أردتَ أن تَلْبَسَ ثوب الوقار والجمال وتتحلى بحِلْيَة المُروءة عند العامّة وتسلك الجَدَدَ[١] الذي لا خَبار[٢] فيه ولا عِثَارَ، فكنْ عالمًا كجاهل وناطقًا كَعييّ.

فأَمّا العلْم فسيزينك ويرشدك، وأمّا قشلَّة ادّعائه فسينفي عنك الحسدَ، وأما المنطق (إذا احتجت إليه) فستبلغ منه حاجتك، وأما الصمت فيُكسبك المحبة والوقار.

* * *

إذا رأيت رجلًا يحدّث حديثًا قد علمتَه أو يُخْبِر خبرًا قد سَمِعْتَه، فلا تشارِكْه فيه ولا تفتحه[٣] عليه، حِرصًا على أن يعلَم الناس أَنك قد علمتَه. فإنّ في ذلك، مع سوء الأدب، خفةً وسُخفًا وحسدًا وتضييعَ حزم وعُجْبًا.

---

(١) سبق شرحهما في الأدب الصغير. فليراجع هناك.

(٢) سبق شرحهما في الأدب الصغير. فليراجع هناك.

(٣) وفي نسخة الشنقيطي: ولا تعبه. وكذلك في ع. وعند الأمير شكيب: ولا تعتبه.

بَابُ

لِيَعْرِفْك إِخوانُك– والعامّةُ إنِ استطعتَ– أنك إِلى أن تفعل ما لا تقول أقربُ منك إلى أن تقول ما لا تفعل.

فإنَّ فضلَ القول على الفعل عارٌ وهُجنةٌ، وفضلَ الفعل على القول زينةٌ.

وأنت حقيقٌ فيما وعدتَ من نفسك أو اخبرتَ به صاحبك من منزلته عندك أن تحتجن(١) بعض ما في نفسك، إعدادًا لفضل الفعل على القول وتحُّرزًا بذلك عن تقصير فعلٍ إن قصّر.

وقلَّما يكون إلا مقصِرًا.

بَابُ

اِحفظ قول الحكيم الذي قال: لِتكنْ غايتُك فيما بينك وبين عدوّك العدلَ، وفيما بينك وبين صديقك الرضاءَ.

وذلك أنّ العدوَّ خَصْمٌ تَصْرَعُه بالحجَّة وتغلِبُه بالحكّام، وأنَّ الصديق ليس بينك وبينه قاض، فإنما هو رضاه وحُكْمه(٢).

بَابُ

(١) تحتجز وتستبقى.

(٢) في ع: وإنما هو حكمه ورضاه. وفي ش: فإنما حكمه رضاء. وقد ضبط الشنقيطي حكمه بفتح الخاء والكاف.

اَجعلْ غاية نيتّك في مؤاخاة من تواخي ومواصلة من تواصل توطينَ نفسك على أنه لا سبيل لك إلى قطيعة أخيك، وإن ظهر لك منه ما تكرَه. فإنه لي كالمملوك الذي تَعتِقه إذا شئْتَ، أو كالمرأة التي تُطلِقها إذا شئْتَ، ولكنّه عِرضُك ومروءتك. فإنما مروّة الرجل إخوانه وأَخدانه. فإن عَثَرَ الناس على أَنك قطعتَ رجلًا من إخوانك– وإن كنت مُعْذِرًا[١]– نزل ذلك عند أكثرهم بمنزلة الخيانة للإخاء والمَلال فيه. وإن أنت مع ذلك المنزِلة وسُكر الشباب. فإنه ليس من هنا شيءٌ إلا هو ريح جِنَّة تَسلُب العقل وتَذهَب وتَصْرِف القلبَ والسمعَ والبصرَ واللسان إلى غير المنافع.

بَابُ

اِعلمْ أنّ انقباضك عن الناس يُكسبِك العداوة، وأنَّ تقربّك[٢] إليهم يكسبك صديق السوء. وسوءُ[٣] الأصدقاء أضرُّ من بُغْض الأعداء. فإنك إنْ واصلتَ صديق السوء أعيتَك جرائرُه، وإن قطعتهَ شأنك[٤] اسْمُ القطيعة وأَلزَمَكَ ذلك مَن يرفع[٥] عيبَك ولا ينشرُ عُذْرَك. فإن المعايب

---

(١) في السلطانية وحدها: معذورًا.

(٢) في ش و ع: "تفرشك". ومعناه التبسط. وبينه وبين الانقباض مشاكسة. غير أننا اخترنا لفظة التقرب لقربها من الافهام ولا بها هي الواردة في النسخة السلطانية التي اعتمدنا عليها.

(٣) في ش: "وفولة الأصدقاء". والفسولة صفة الفسل أي الرذل "بسكون الذال" الذي لا مروءة له. ولكن الكلام يدور على صديق السوء فروايتنا متى. لأن الفسولة لا تقابل البغض.

(٤) أي أوجب لك لعيب عند الناس.

(٥) هكذا في جميع النسخ ولعلها تحريف لقوله يذيع.

تَنْمِي والمعاذيرَ لا تَنْمِي[1].

بَابُ

اِلْبَسْ للناس لباسَيْنِ ليس للعاقل بُدٌ منهما، ولا عيشَ ولا مُرُوءَة إلا بهما:

لباسَ انقباض وانحجاز[2] من الناس، تلبَسُهُ للعامّة. فلا يلقَوْنَك[3] إلا متحفِّظ متشدِّدًا متحرِزًا مستعِدًا.

ولباسَ انبساط واستئناس، تلبَسُهُ للخاصّة الثقات من أصدقائك. فتلقاهم بذات[4] صدرك وتُقضِي إِليهم بمصون حديثك وتضع عنك مؤونة الحَذَر والتحفُّظ فيما بينك وبينهم.

وأهل هذه الطبقة– الذين هم أَهلها– قليلٌ من قليلٍ حقًا. لأن ذا الرأي لا يُدخِل أحدًا من نفسه هذا المَدْخَل إلا بعد الاختبار والتكشُّف والثقة بصدق النصيحة ووفاء العهد[5].

اِعلم أن لسانَك أداةٌ مُصْلَتةٌ[6]، يتغالب عليه عقلك وغضبك

([1]) كتب الشنقيطي بخطه على هامش هذه القطعة البيتين المشهورين وهما:

احذر عدوك مرة * واحذر صديقك ألف مرة

فلربما انقلب الصديق فكان أعلم بالمضره

([2]) ش: واحتجاز.

([3]) ع: ولا تلفين. أي بالمبنى المجهول مع نون التوكيد الثقيلة.

([4]) ش: و ع: ببنات.

([5]) ش: وع: العقل.

([6]) ش: وع: أداة مغلبة "وضبطها الشنقيطي بالإضافة".

وهواك وجهلك. فكلّ غالب عليه مستمعٌ به وصارفه في محبته. فإذا غلب عليه عقلك فهو لك، وإن غلب عليه شيءٌ من أَشباه ما سمَّيْتُ لك فهو لعدوك.

فإنِ استطعتَ أَن تحتفظ به وتصونه فلا يكون إلا لك، ولا يستوِلى عليه أَو يشارِكَك فيه عدوُّك، فافْعَلْ.

* * *

إِذا نابَتْ أَخاك إحدّى النوائب من زوال نعمة أو نزول بليَّة، فاعلمْ أَنك قد ابتُليتَ معه: إما بالمؤاساة فتشاركه في البليَّة، وإِما بالخذلان فتحتمل العار[1].

فالتمِسِ المَخرَج عند أشباه[2] ذلك، وآثِر مُرُوءَتك على ما سواها.

فإن نزلت الجائحة التي تأبَى نفسُك مشاركةَ أَخيك فيها، فأجمِلْ[3].فلعلَّ الإجمال يَسَعُك، لقلَّة الإِجمال في الناس.

---

(1) ش و ع: اشتباه.

(2) كتب الشنقيطي بخطة على هامش هذا الموضع في نسخته ما نصه:

وما منك الصديق ولست منه * إذا لم يغنه شيء غناكا

(3) أي فاصنع جميلًا بالإحسان في التسليفة له عما أصابه.

بَابٌ[1]

إذا أصاب أخوك فضلَ منزلة أو سلطان فلا تُرِيَنَّه أَنّ سلطانه قد زادك له وُدًّا، ولا يعرِفنَّ منك عليه بماضي إخاتك تدلُّلا. وأَرِهِ أنّ سلطانه زادك له ترقيرًا وإجلالاً من غير أن يقدِر أنْ يزيده وُدًّا ولا نُصْحًا، وأنك تَرَى حقًّا للسلطان التوقيرَ والإجلال. فكُنْ في المداراة له والرفق به كالمؤتنف لما قبله! ولا تقِّدر الأمور فيما بينك وبينه على شيء مما كنت تعرِف من أخلاقه! فإنَّ الأخلاقَ مستحيلةٌ[2] مع السلكان. وربما رأينا الرجل المُدِلَّ على السلطان بقِدَمِه قد أضرّ به قِدَمُهُ.

بَابٌ

لا تعتذرنَّ إلَّا إلى مَن يُحِبُّ أنْ يجد لك عذرًا، ولا تستعينَنَّ إلا بمن يُحِب أنْ يُظفِرك بحاجتك، ولا تُحدثَنَّ إلا مَن يرى حديثك مَغْنَمًا، ما لم يغلِبك اضطِرارٌ.

بَابُ

إذا غَرَسْتَ من المعروف غَرسًا وأنفقت عليه نفقةً، فلا تِضنَّنَّ في تربية ما غَرستَ واستنمائه، فتذهب النفقة الأولى ضَياعًا[3].

---

(1) هذا الباب وما يليه لغاية صفحة ٨٣ ورد في نسخة عاشر أفندي منقولاً عن موضعه اللائق به. فإن ابن المقفع يتكلم وفيما يليه عن آداب الأخاء، ومحلها في هذا للقسم الثاني لا في القسم الأول الذي هو خاص بآداب السلاطين والولاة. وقد ترتب على هذا الخرم اضطراب في السياق كما ستراه في حاشيته صفحة.

(2) أي من شأنها التنقل من حال إلى حال.

(3) في النسخة السلطانية: عيانًا. وقد كتب الشنقيطي في نسخته على هامش هذا الباب بخطه ما نصه.

عندي حدائق ود غرس انعمكم * قد مسها عطش الميسق من غرسا

تداركوها وفي أغصانها رمق * فلن يعود اخضر العود أن يبسا

إذا اعتذر إليك معتذرٌ، فتلقَّه بوجهٍ مُشْرِقٍ وبِشْرٍ ولسان طلْقٍ[١] إلا أنْ يكون ممن قطيعته غنيمة.

بَابُ

اِعلمْ أنّ اِخوان الصدق هم خير مكاسب الدنيا. هم زِينةٌ في الرخاء وعُدَّةٌ في الشدَّة ومعونةٌ على خير المعاش والمعاد. فلا تُفَرّطَنَّ في اكتسابهم وابتغاء الوُصُلات والأسباب إليهم.

اِعلمْ أنك واجدٌ رغْبتك من الإخاء عند أقوامٍ قد حالت بينك وبينهم بعض الأُبَّهة التي قد تعترى بعض أهل المروآت فتحجز عنهم كثيرًا ممن يَرْغَب في أمثالهم. فإذا رأيت أحدًا من أولئك قد عَثَر به الدهر وعَرَفْتَ نفسكَ[٢] أَنّه ليس عليك في دُنُوِّك منه وابتغائك مودَّته وتواضعك له مَذَلَّةٌ، فاغتنمْ ذلك منه واعمَل فيه.

* * *

إذا كانت لك عند أحد صنيعةٌ أو كان لك عليه طوْلٌ فالتمِسْ إحياءَ ذلك بإماتته وتعظيمَه بالتصغير له. ولا تقتصرنَّ في قلة المنّ به على أنْ تقول: "لا أذكُرُهُ ولا اصغِي بسمعي إلى مَن يذكره" فإن هذا قد يستحي

---

(١) ش: طليق.

(٢) سقط باقي الكلام هنا في نسخة عاشر افندي فاضطرب المعنى واختل النظام. وقد تداركها الأمير شكيب فوضع من عنده لفظة "اقله" تكميلًا لخبر الجملة. ولقد احسن والله في ملافاة هذا النقص بما اوصله إليه اجتهاده. وأما نسخة الشنقيطي فبقيت على حالها لا يفهم الإنسان منها شيئًا. والحمد لله الذي وفقنا للعثور على النسخة السلطانية ففيها الكمال. في هذا الموضع كما في كثير غيره.

منه بعض من لا يوصف بعقل ولا كَرَم. ولكن احّذَر أن يكونَ في مجالستك إيّاه وما تُكلِمُهُ به أو تستعينُهُ عليه أو تُجاريه في شيءٌ من الاستطالة. فإن الاستطالَة تهدِم الصنيعة وتُكدِر المعروف.

بَابٌ

اِحترسْ من سَورة[١] الغضب[٢] وسَورة الحَمِيَّة[٣] وسَوْرة الحقد وسَوْرة الجهل[٤] وأعدِدْ لكلّ شيء من ذلك عُدَّةً تجاهده بها من الحلم والتفكُّر والرويَّة، وذكر العاقبة وطلب الفضيلة.

واعلمْ أنّك لا تُصيبُ الغَلَبة إلا بالاجتهاد والفضل، وأنّ قِلَّة الإعدادِ لمدافعة الطبائع المتطلعة هو الاستسلام لها. فإنه ليس أحَدٌ من الناس إلا وفيه من كل طبيعةٍ سوءُ غريزة. وإنما التفاضل بين الناس في مغالبة طبائع السوء.

فأَمّا أنْ يَسلمَ أحدٌ من أنْ يكون فيه من تلك الغرائز شيءٌ، فليس في ذلك مطمعٌ. إلا أنَّ الرجل القويَّ، إذا كان يَرُدُّها بالقمع لها كلما تطلَّعتْ، لم يلبَثْ أنْ يُميتها حتى كأنها ليست فيه. وهي في ذلك كامنة ككمون النار في العُود والحَجَر. فإذا وَجَدتْ قادحًا من عَّلة أو غفلة، استورت[٥] كما تستورى النار عند القدْح في الحب ثم لا يبدأ ضُّرها إلا

---

(١) السورة "بفتح السين" هي الشدة والحدة.

(٢) ضد الحلم "بالحاء المهملة"كما هو في غير هذا الموضع ضد العلم.

(٣) الأنفة والعزة والنمرة.

(٤) الجهل هنا هو ضد العلم "بالعين المهملة".

(٥) أي استعرت واتقدت والتهبت.

بصاحبها، كما لا تبدأ ضرُّها إلا بصاحبها، كما لا تبدأ النار إلا بعُودها التي كانت فيه.

بَابُ

ذلِلّ نفسك بالصبر على جار السوء، وعثير السوء، وجليس السوء. فإن ذلك مما لا يكاد يخطِئك.

واعلم أنَّ الصبر صبران: صبر المرء على ما يكرَهُ، وصبره عما يُحِبّ.

والصبر على المكروه أكبرهما[1]، وأشبههما أن يكون صاحبه مُضطَرًا.

واعلم أنّ اللئام أصبر أجسادًا، وأن الكرام هم أصبر نفوسًا.

وليس الصبر المحمود الممدوح بأَن يكون جِلْدُ الرجل وَقَاحًا[2] على الضرب، أو رِجلُه قويَّة على المشي، أو يدُه قويةً على العمل. فإنما هذا من صفات الحمير.

ولكنَّ الصبر المحمود الممدوح أن يكون للنفس غلُوبًا، وللأمور مُحْتَمِلًا، وفي الضرّاء مُجْمِلاً[3]، ولنفسه عند الرأي والحِفَاظِ[4] مرتبطًا،

---

(1) ش: أكثرهما.

(2) أي فيه صلابة وكثرة احتمال.

(3) في النسخة السلطانية: محتملًا. ورواية ش أفضل.

(4) الحفاظ هو الذب عن المحارم.

وللحزم مُؤْثِرًا، وللهوَى تاركًا، وللمشقَّة التي يرجو حسن عاقبتها مستخفًّا، ولنفسه على مجاهدة الأهواء والشهوات مُوَطِنًا[١]، ولبصيرته بعزمه مُنَفِذًا.

* * *

حبِبْ إلى نفسك العلْمَ حتى تلزمه وتألفه، ويكون هو لَهْوَك ولذَّتك وسلْوِتك وتعلُّلك[٢] وشهْوَتك.

واعلم أن العلم علمان: علْمٌ للمنافع، وعلْمٌ لتذكية العقول.

وأفشىَ العلَميْن منفعةً وأحراهما[٣] أنْ ينشط له صاحبُه من غير أن يُحَضَّ عليه علْمُ المنافع. والعلْمُ الذي هو ذكاء العقول وصِقالها وجَلاؤُها له فضيلةُ منزلةٍ عند أهل الفضيلة والألباب.

بَابُ

عوِّدْ نفسَك السخاء.

واعلمْ أنهما سخا آن: سَخاوةُ نفْس الرجل بما في يديهْ، وسخاوته عما في أيدي الناس.

وسَخاوة نفْس الرجل بما في يديه أكثرهما وأقربهما من أن تدخل فيه المفاخرة. وتركه ما في أيدي الناس أمحضُ في التكرُّم وأبرأُ من

---

(١) ش: مواظبًا.

(٢) ش: وبلعتك "بضم الياء" والتعلل أوقع في هذا الموضع.

(٣) الأمير شكيب: وأحدهما. وهو تصحيف من المطبعة ولا شك.

الدَّنَس وأنزه.

فإن هو جمعهما فَبَذَل وعفَّ. فقد استكمل الجود والكرم.

بَابُ

ليكنْ مما تصرِف به الأذى والعذاب عن نفسك أنْ لا تكون حسودًا.

واعلم أنّ الحسد خُلُق لئيمٌ. ومن لؤمه أنّه موكل بالأدنى فالأدنى من الأقارب والأكْفَاء والمعارف والخلطاء والإخوان.

فليكن ما تعامل[1] به الحسدَ أن تعلَمَ أن خير ما تكونُ حين تكون مع من هو خير منك، وأنَّ غُنْما حسنًا لك أن يكون عشريك وخليطك أفضلَ منك في العلم فتقتبسَ من علمه، وأفضلَ منك في القوة فيدفعَ عنك بقوّنه، وأفضلَ منك في المال فتُفيدَ[2] من ماله، وأفضلَ منك في الجاه فتُصيبَ حاجتك بجاهه، وأفضلَ منك في الدِين فتزدادَ صلاحًا بصلاحه.

---

(1) ش: تقابل.

(2) أفاده واستفاده وتقيده بمعنى واحد وهو اقتناه.

بَابُ

ليكنْ مما تنظر فيه من أمر عدوّك وحاسدك أن تعلم أنه لا ينفعُك أنْ تخبر عدوَّك وحاسدَك أنَّك له عدوّك، فتنذِرَهُ بنفسك وتُؤْذِنَهُ بحربك قبل الإعداد والفرصة. فتحملُه على التسلُح لك وتُوقِدُ ناره عليك.

* * *

اِعلمْ أنّه أعظمُ لَخطرِك أنْ يرى عدوُّك أنّك لا تتّخذه عدوًّا. فإنّ ذلك غِرَّةٌ له وسبيلٌ لك إلى القدرة عليه. فإنْ أنت قدرت واستطعت اغتفارَ العداوة عن أن تكافئَ بها، فهنالك استكملتَ عظيمَ الخَطَر.

* * *

إنْ كنتَ مُكافئًا بالعداوة والضرر، فإيّاك أضنْ تكافئَ عداوة السرّ بعداوة العلانَية، وعداوةَ الخاصّة بعداوة العامّة. فإنَّ ذلك هو الظلم والاعتداء.

واعلك مع ذلك أّنه ليس كل العداوة والضرر يكافأ بمثله. كالخيانة لا تكافأ بالخيانة، والسَّرِقة لا تكافأ بالسرقة.

ومن الحيلة في أمرك أن تصادق أصدقاءه وتؤَاخى إخوانه، فتدخل بينه وبينهم في سبيل الشقاق والتلاحي والتجافي حتى ينتهي ذلك بهم

إلى القطيعة والعداوة له. فإنّه ليس رجلٌ ذو ظَرف يمتنع من مؤاخاتك إذا التمست ذلك منه. وإن كان إخوان عدوّك غير ذوي ظرف[1]، فلا عدوَّ لك.

بَابُ

لا تَدَعْ– مع السكوت عن شَتْمِ عدوّك– إحصاءَ مثالبه ومعاتبه ومعايره واتّباعَ عوارِته، حتى لا يشُذَ عنك من ذلك صغير ولا كبير، من غير أنْ تشيع ذلك عليه، فيتسلَّحَ له، ويستعدَّ له. ولا تذكره في غير موضعه، فتكون كمستعرض الهواء بنَبْلِهِ[2] قبل إمكان الرمْي.

* * *

لا تتخذِنَّ اللعن والشتم على عدوّك سلاحًا، فإنه لا يجرح في نفْسٍ ولا منزِلةٍ ولا مالٍ ولا دينٍ.

بَابُ

إنْ أردت أَن تكون داهيًا، فلا تُحِبَّنَّ أن تسمَّى داهيًا. فإنّه من عُرف بالدّهاء، صار مخاتلاً علانَيةً، وحذِرَهُ الناس[3] حتى يمتنع منه الضعيف ويتعرَّض له القويُّ.

---

(1) ش: طرق.

(2) النبل "بفتح النون وسكون الباء الموحد التحتية" هي السهام، مثل النبال.

(3) أي احترزوا منه.

فإنَّ من إرب[1] الأريب دفنَ [2] إرْبه ما استطاع حتى يُعْرَف بالمسامحة في الخليقة والاستقامة في الطريقة.

ومن إرْبه أنْ لا يوارب العاقل المستقيم الطريقة والذي يطلع على غامض أرَبه ويوقفه عليه، فيَمقْتَهُ لذلك.

وإنْ أردتَ السلامة فأشعِر نفسك الهيبْة[3] للأمور، من غير أنْ تَظهرَ للناس منك الهيبْةُ، فتُفطنَهم بنفسك وتجرِّئَهم عليك وتدعو إليك منهم كلَّ الذي تهاب.

فاشعَبْ[4] لمدارة ذلك من كتمان الهيبة إظهار الجُرأة[5] والتهاون[6] طائفةً من رأْيك.

وإنِ ابْتُليتَ بمحاربة عدوّك فحالف[7] هذه الريقة التي وصفتُ لك من استشعار الهيبة وإظهار الجُرأة والتهاون. وعليك بالحِذْر والجِدّ في أمرك والجُرْأة في قلبك، حتى تملأ قلبَك الجرأةُ ويتفرِغَ حملك الحِذْرَ.

([1]) الإرب "بكسرة الهمزة" الدهاء.

([2]) أي ستره وارائه.

([3]) الهيبة المخافة والتقيه

([4]) أي فاجمع. والمفعول هو قوله في آخر الجملة: طائفة من رأيك.

([5]) الشجاعة والاقدام.

([6]) الاستبسال والاستخفاف.

([7]) في النسخة السلطانية: فخالف "بالمعجمة".

بَابُ

اِعلمْ أنْ من عدوّك من يعملَ في هلاكك. ومنهم من يعمل في مُصالحتك، ومنهم من يعمل في البعد منك.

فاعرفهم على منازلهم

ومن أَقوى الفوّة لك على عدوّك، وأعزِ أَنصارك في الغَلَبَة له أنْ تُحصَى على نفسك العيوبَ والعوْراتِ كما[١] تحصيها على عدوّك، وتنظُرَ عند كلّ عيب تراه أو تسمعه لأحدٍ من الناس هل فارقتَ[٢] ذلك العيبَ أو ما شكله، أو سلمِتَ منه.

فإِنْ كنتَ قارفتَ شيئًا منه، جعلتَه مما تُحصِي على نفسك. حتى إذا أَحصيْتَ ذلك كلَّه، فكاثِرْ[٣] عدوَّك بإِصلاح نفسك وعَثَرَاتك، وتحِصينِ عوْراتك وإحراز مقاتلك.

وخُذْ نفسك بذلك مُمْسِيًا ومُصْبِحًا.

فإذا آنسْتَ منها[٤] دفعًا له وتهاونًا به[٥]، فاعدُدْ نفسك عاجزًا،

([١]) ش: كلماء وهو وهم من الناسخ الأول.

([٢]) أي اتبت مثله وارتكبته.

([٣]) ش: مكابر.

([٤]) أي أبصرت وأحسست من نفسك.

([٥]) الضميران في كلمتي (له، به) يعودان على إحصاء الإنسان عيوبه.

ضائعًا، خائبًا[1]، مُعْوِرًا[2] لعدوّك، مُمْكِنًا له من رمْيك.

وإنْ حصل من عيوبك وعوْراتك ما لا تقدِر على إصلاحه من ذنبٍ مضى لك أَو أَمرٍ يَعيبُك عند الناس ولا تراه أنت عيبْاً، فاحفظ ذلك واجعله نُصْبَ عينك[3] ولا تقل وما عسى يقول فيّ القائل، فاعلم أنّ عدوَّك مُريدُك بذلك. فلا تغفل عن التهُّيؤِ له بحيلتك فيه سرًا وعلانيَةً، وعن الإعداد لقوَّتك وحُجتك من نسبك ومثالب آبائك أو عيب إخوانك وأخدانك.

فأَما الباطل فلا تَرُعَنَّ به قلبَك ولا تستَعدَّنَّ له ولا تشتغلنَّ بشيءٍ من أمره. فإنّه لا يَهُويك ما لم يقع، وما إنْ وقع اضمحلَّ.

واعلم أنه قلَّما بُدِه[4] أحد بشيء يعرِفه من نفسه– وقد كان يطمع في إخفائه عن الناس– فيعَيِرُهُ به مُعَيّرٌ عند السلطان أوِ غيره، إلا كاد يشهَد به عليه وجهُهُ وعينُهُ ولسانُهُ: للذي يبدو منه عند ذلك، والذي يكون من انكساره وفُتوره عند تلك البديهة.

فاحذر هذه وتصنّع لها، وخذْ أُهبتك لبَغَتها[5]، وتقدَّم في أخذ العِتاد لنفيها.

([1]) ش: جانبًا. والتصحيف من الناسخ الأول إذ لا يستقيم المعنى في هذا المهام بالجناية كما يستقيم بالخيانة كما يدل عليه السياق.

([2]) من أعور الفارس إذا بدا فيه موضع خلل لمضرب.

([3]) أي الغاية التي يتجه إليها نظرك.

([4]) بدهه بأمر استقبله به مفاجأة.

([5]) جمع بغتة وهي الفاجأة.

بَابُ

اَعلْم أنَّ مِن أوقع[١] الأمور في الدين وأنهِكها للجسد وأتلفِها للمال وأقتِلها للعقل وأزراها للمُرُوءة وأسرعها في ذَهاب الجلالِة والوقارِ: الغرامَ بالنساء.

ومن البلاء على المُغرَم بهنَّ أنَه لا ينفك يَأجَمُ[٢] ما عنده وتطمَحُ عيناه إلى ما ليس عنده منهنَّ.

وإِنّما النساء أشباه.

وما يَتَزَيَّنُ في العيوب والقلوب من فضْل مجهولاتهنَّ على معروفانهنَّ باطل وخُدْعةٌ. بل كثير مما يرَغَبُ عنه الراغب مما عنده أفضلْ مما تتوق إِليه نفسه منهمنَّ.

وإنّما لمرتغِبُ عما في رَحلْه[٣] منهمَّ إلى ما في رحال الناس كالمرتغبِ عن طعام بيته إلى ما في بيوت الناي: بل النساء بالنساء أشبه من الطعام بالطعام؛ وما في رحال الناس من الأطعمة أشذُ تفاضلًا وتفاوتًا مما في رحاليم من النساء[٤].

---

(١) النسخة السلطانية: أوضع.

(٢) يكره.

(٣) بيته وداره.

(٤) كتب الشنقيي بخطه على هامش هذا الموضع من نسخته ما نصه:

وكنت متى أرسلت طرفك رائدًا　　　لقلبك يومًا أتعبتك المناظر

رأيت الذي لا كله أنت قادر　　　عليه ولا عن بعضه أنت صابر

ومن العَجَب أنَّ الرجل الذي لا بأسَ بلُبِهِ ورأيه يرى المرأة من بعيد متلفّفَةً في ثيابها، فيُصَوِّرُ لها في قلبه الحسنَ والجمالَ حتى تَعلَقَ بها نفسُه من غير رُؤْية ولا خبر مخبرٍ. ثمَّ لَعَلّهُ يهجُم منها على أقبح القُبْح وأذَمّ الدَّمامة[1]، فلا يعظه ذلك ولا يقطعه عن أمثالها. ولا يزال مشغوفًا بما لم يذُقْ، حتى لو لم يبقَ في الأرض غيرُ امرأة واحدة، لظنَّ أنّ لها شأنًا غيرَ شأن ما ذاق.

وهذا الحُمقُ والشقاءُ والسَفهُ.

ومن لم يَحمِ نفسه ويُطَلِّقْها ويُحَلِئْها[2] عن الطعام والشراب والنساء في بعضِ ساعاتِ شهوْته وقُدْرته، كان أيسرَ ما يصيبه من وبالِ ذلك انقطاعُ تلك اللذّات عنه بخمود نار شهْوته وضُعْف حوامل جسده. وقلّ من تجدُه إلا مخادِعًا لنفسه في أمر جسده عند الطعام والشراب والحِمْيَة والدواء، وفي أمر مُرُوءته عند الأهواء والشهوات، وفي أمر دِنه عند الرِيبة والشُّبْهة والطمع.

بَابُ

إنِ استطعتَ أن تضع نفسك دون غايتك برتبةٍ في كلّ مجلس ومقَامٍ ومقالٍ ورأْيٍ وفعلٍ، فافعلْ. فإنَّ رفعَ الناس إيّاك فوق المنزلة التي

---

(1) كتب الشنقيطي بخطه على هامش هذا الموضع من نسخته ما نصه:

إذا بارك الله في ملبس فلا بارك الله في البرقع

بريك عيون المها غِرَّة وتكشف عن منظر أشفع

(2) يطردها ويمنعها.

تُحط إليها نفسَك وتقريبهَم إياك إلى المجلس الذي تباعدْتَ منه وتعظيمَهم من أمرك ما لم تعظِم وتزيينَهم من كلامك ورأْيك وفعلك ما لم تُزَيِّنْ، هو الجمال [1].

بَابُ

لا يُعجِبنَك العالِمُ ما لم يكن عالمًا بمواضع ما يعلم[2]، ولا العامل إذا جَهل موضع ما يعمَل.

بَابُ

إنْ غُلبْتَ على الكلام وقتًا، فلا تغْلبنّ على السكون! فإنّه لعله أن يكون نشدَّهما لك زينةً وأجلبهما إليك للمودة وأبقاهما للمهابة وأنفاهما للحَسد.

بَابُ

اِحذرِ المِراء وأغْرِبْهُ[3]. ولا يمنعنَّك حَذَّرُ المِرَاء من حُسْن المناظرة والمجادلة.

واعلمْ أنَّ المماري هو الذي يريد أنْ يتعلم من صاحبه، ولا يرجو أن يتعلم منه صاحبه. فإنْ زعم زاعمٌ أنّضه مُجادلٌ في البال عن الحقّ، فإنّ

---

(1) كتب الشنقيطي بخطه على هامش هذا الباب من نسخته ما نصه:

كن كاملًا وارض بصف النعال ... ولا تكن صدرًا بغير الكمال

فإن تصدرت بلا آلة ... صيرت ذاك الصدر صف النعال

(2) النسخة السلطانية: ما لم يعلم. ولهذه الرواية أيضًا وجه وجيه.

(3) أي تباعده وأبعده. وفي ش: اعرفه. وعندي أن هذه اللفظة اشتبهت على الناسخ فلم يعرف معناها نصحفها وظن أنه صححها.

المُجادَلَ وإنْ كان ثابت الحُجَّة حاضرَ البيّنة والذهن فإنَّه يخاصم إلى غير قاض، وإنَّما قاضيه الذي لا يعدِلُ بالخصومة إليك عدلُ صاحبه وعقلُه. فرنْ آنَسَ أو رجا عند صاحبه عدْلًا يقضى به على نفسه، فقد أصاب وجه أمره. وإذا تكلم على غير ذلك كان مماريًا.

* * *

إنِ استطعتَ أن لا تُخبِرَ أخاك عن ذات نفسك بشيء إلا وأنت مُحْتَجِنُ[1] عنه بعضَ ذلك التماسًا لفضلْ الفعل على القول واستعدادًا لتقصير فعلٍ إن قصَّر، فافعل.

واعلمْ أنّ فضلْ الفعل على القول زينةٌ. وفضلَ القول على الفعل هُجْنةٌ[2] وإن إحكام هذه الخَلَّة[3] من غرائب الخلال.

* * *

إذا تراكمَتْ عليك الأعمال، فلا تلتمِس الرَّوْح[4] في مدافعتها يومًا بيومٍ والرَّوغَان منها. فإنّه لا راحةَ لك إلا في إصدارها. وإنَّ الصبر عليها هو الذي يخففِها عنك، والضَّجَرَ هو الذي يراكمها عليك.

---

(1) الاحتجان الجذب إلى النفس. "هذا التفسير وارد في متن نسخة نور عثمانية، بغير فاصل وبدون تنبيه"

(2) عيب.

(3) الخلة الخصلة "بفتح الخاء فيهما".

(4) في ش: المصنع المحصور. وقد أراد الأمير شكيب اصلاح هذا التركيب فقال: المصنع المحسود. وكلا الوجهين بعيد عن المعنى الذي يستلزمه السياق. ورواية النسخة السلطانية في منتهى المتانة والرصانة والمعنى واضح. وملائم لمقدمة الكلام.

فتعهَّد من ذلك في نفسك خَصلة قد رأيتُها تعتري بعض رأيُك وعقلُك اللذان بهما تختار الأمور، ثُمَّ اخْترْ أَولىَ الأمرينْ بشغلك فاشتغلْ به حتى تفرَغَ منه. ولا يعْظُمَنَّ عليك فوتُ ما فات وتأْخيرُ ما تأخَّرَ.

بَابُ

إذا اعْمَلْتَ الرأيَ مُعْمَلَه وجعلتَ شغلك في حقّه، فاجْعلْ لنفسك في كلّ شُغلٍ غايةً ترجو القوّة والتمام عليها.

بَابُ

اِعلمْ أنّك إنْ جاوزتَ الغاية في العبادة، صِرْتَ إلى القصير؛ وإنْ جاوزتها في حَمْل العلْم، لَحِقْتَ بالجهَّل؛ وإنْ جاوزتها في تكلّف رضَى الناس والخفّة معهم في حاجاتهم، كنتَ المُحسَّر المضيَّع.

بَابُ

اِعلمْ أنَّ بعض العطّية لُؤْمٌ[1]، وبعض السلاطة غَمٌّ، وبعضَ البيان عِيٌّ، وبعض الحلم جهلٌ. فإنِ استطعتَ أنْ لا يكون عطاؤك جورًا ولا بيانك هَذَرًا[2] ولا علمك وبالًا، فافعلْ.

(1) النسخة السلطانية: سرف "بفتح السين والراء". وهي رواية وجيهة أيضًا.

(2) الهذر سقط الكلام. "والسقط بفتح السين والقاف".

بَابُ

اِعلمْ أنّه ستمرُّ عليك أحاديث تُعجِبك: إما مليحة وإمَّا رائعة.

فإذا أعجَبتْك، كنتَ خليقًا أن تحفظَها. فإنَ الحفظ موكَّل بما مَلُحَ ورَاعَ. وستحرِصُ على أن تُعجَبَ منها الأقوامُ. فإن الحِرص على التعجُّب منِ أن الناس. وليس كل مُعْجِب لك مُعْجِبًا لغيرك.

فإذا نَشَرْتَ ذلك المرَّة والمرَّتين، فلم تَرَهُ وَقَعَ من السامعِين موقِعَة منك، فانزجرْ عن العودة. فإنّ التعجُّبَ من غيرْ عَجَبٍ سُخْفٌ شديدٌ.

وقد رأينا من الناس مَن تعلَّق بالشيء ولا يقلعُ عنه وعن الحديث به، ولا يمنعه قِلة قبول أصحابه له من أن يعود ثم يعود.

ثمَّ انظُرِ الأخيار الرّائعة فتحفَّظ منها[1]. فإنّ الإنسان من شأنه الحِرص على الإخبار، لا سيمّا ما يَرتاع الناس له. فأكْثَرُ الناس من يُحدِث بما سمِع، ولا يبالي ممّن سمِعَ. وذلك مَفْسَدَة للصدق ومَزْرَاة[2] بالمُرُوءة.

فإنِ استطعتَ أنْ لا تُخبِرَ بشيء إلّا وأنت به مصدّقٌ (ولا يكون تصديقك إلا بالبرهانٍ)، فافعل. ولا تقل كما يقول السفهاء: "اخبِرُ بما سمِعْتُ".

---

(1) أي احترس منها.

(2) أي بدون الهمزة، مثل منجاة ومهواة الخ.

فإنّ الكَذِبَ أكثرُ ما أنت سامِعُ، وإنّ السفهاء أكثرُ مَن هو قائلٌ. وإنك إنْ صِرتَ لأحاديث[١] واعيًا وحاملًا، كان ما تعي وتحمِلُ عن العامة أكثرَ مما يَخترِعُ المخترِعُ بأَضعافٍ.

* * *

انظر مَن صاحبْتَ من الناس، من ذي فضلٍ عليك بسلطانٍ أو منزلةٍ، أو مَن دُون ذلك من الاكْفَاءِ والخلَطاءِ والإخوان، فوَطِّنْ نَفْسَك في صُحبته على أن تقبَلَ منه العفوَ وتسخُو[٢] نفسك عما اعتاضَ[٣] عليك ممّا قَبلَه، غيرَ مُعاتبٍ ولا مستبطئٍ ولا مُستزيدٍ. فإنَّ المعاتبة مَقطَعَةٌ للودِّ، وإنَّ الاستزادة من الجَشَع. وإنَّ الرضا بالعفو والمسامحة في الخلق مقرِب لك كلَّ ما تَتُوق إليه نفسك، مع بقاء العِرض والمودّة والمُرُوءة[٤].

* * *

اِعلمْ أنّك ستُبلَى من أقوامٍ بسَفَةٍ، وأنَّ سَفهَ السفيه سيُطْلِعُ له منك حقدًا. فإنْ عارضْتَهُ أو كافأْتَه بالسَّفَهِ فكأنك قد رضيتَ ما أتى به،

---

(١) في النسخة السلطانية: للأكاذيب.

(٢) ش: وتسخر. وهو تصحيف من الناسخ لا يرتبط بالمعنى، كما يظهر من النظر في سياق الكلام بأدنى تأمل.

(٣) أي ما يصعب عليك استخراج معناه.

(٤) كتب الشنقيطي بخطه على هامش نسخته في هذا الموضع ما نصه:
وأنَهَ المثيرَ عليك فِي بضَلة فالحُرُّ ممتَحَن بأولاد الزنى

فأحببتَ أن تحتذىَ على مثاله. فإن كان ذلك عندك مذمومًا، فحقِّق ذمَّك إياه معارضته. فأمّا أنْ تذُمَّه وتمتثلَهُ، فليس ذلك لك سدادًا.

لا تُصاحِبنَّ أحدًا (وإن استأنست به أخًا ذا قرابة أو أخًا ذا مودّة) ولا والدًا ولا ولدًا إلا بمُرُوءة. فإنّ كثيرًا من أهل المُرُوءة قد تحملهم مروءتهم والاسترسال والبذْل على أن يصحَبوا كثيرًا من الخُلطاء بالإدلال والتهاون والتبدُّل.

ومَن فَقَدَ من صاحبه صُحبة المروءة ووقارَها وجلالَها، أحدثَ ذلك له في قلبه رِقَّة شأن وسُخف منزلة.

بَابُ

لا تلتمِس غَلَبَة صاحبك والظَّفَر عليه عند كلِ كلمةٍ ورأيٍ، ولا تجترئَن على تقريعه وتبكيته بظفَرك إذا استبان، وحجتَّك عليه إذا وضَحَت.

فإنّ أقوامًا قد يحملهم حُبُّ الغَلَبة وسَفهُ الرأي في ذلك على أن يتعقبوا الكلمة بعد ما تُنْسى فيلتمسوا فيها الحُجة، ثم يستطيلون بها على الأصحاب. وذلك ضَعفُ في العقل ولُؤْمٌ في الأخلاق.

بَابُ

لا يُعجبنك إكرام مَن يكرمك لمنزلةٍ أو سلطانٍ فإنَّ السلطان أوشكُ أمور الدنيا زوالاً. ولا يُعجبنك إكرامُ مَن يكرمك للمال، فإنّه هو

الذي يتلو السلطان في سرعة الزوال. ولا يُعجبَّنك إكرامهم إياك للنسب، فإنّ الأنساب أقلُّ مناقب الخير غَناءً عن أهلها في الدِين والدنيا[١].

ولكن إذا أكرِمت على دِينٍ أو مُروءةٍ، فذلك فليُعجبك! فإنّ المروءة لا تزايلك في الدنيا، وإنّ الدِين لا يزايلك في الآخرة.

بَابُ

اِعلمْ أنّ الجبنَ مقتلةٌ وأن الحرص مَحرَمة[٢].

فانظر فيما رأيتَ أو سمِعت أمضن قُتل في القتال مُقبلًا أكثرُ، أمَّن قُتل مُدبرًا؛ وانظر أمَن يطلب إليك بالإجمال والتكرُّم أحقُّ أن تسخوَ

---

(١) كتب الشنقيطي بخطه على هذا الموضع من نسخته ما نصه:

في المعنى:

كن ابن من شئت واكتسب أدبًا ... يغنيك محموده عن النسب

إن الفتى من يــــقول ها أنا ذا ... ليس الفتى من يقول كان أبي

(٢) كتب الشنقيطي بخطه على هامش هذا الموضع من نسخته ما نصه:

في المعنى:

عِش عزيزًا أو مُت وأنت كريمٌ ... تحت ظلّ القنا وخَفْق البُــنود

فرؤوس الرماح أذهـــبُ للغيظ ... وأشفى لغِل صدور الحــسود

لا كما قد حييـــتَ غير حميدٍ ... وإذا مِتَّ مِــتَّ غـــير فقــيدِ

فاطلب العزّ في لظَى واترك الذُّل ... ولو كانفي جِـــنان الخُـــلود

يُفتك العــــاجزُ الجبانُ وقد ... يعجَزُ عن قطع بُخنق المولولود

وفي المعنى:

وإذا لم يكن من المـــوت بدٌّ ... فمن العَـــجز أن تمــــوت جَبانًا

لعمرك ما الإنسان إلا ابن دِينه ... فلا تترك اتِّـــكالاً على النـــــسب

فقد رَفعَ الإسلامُ سِلمان فارسٍ ... وقد وضع الشرك الشريفَ أبا لَهبْ

نفسك له بطلِبتِهِ أمَّن يطلب إليك بالِشرَّة[1] والزيغ[2]؟

بَابُ

اعلمْ أنّه ليس كلُّ مَن كان لك فيه هوىً، فذَكّرَهُ ذاكر بسوء وذكرتَه أنت بخير، ينفعه ذلك. بل عسى أنْ يضُرَّه.

فلا يستخفنَّك ذِكر أحدٍ من صديقك أو عدوك، إلا في مواضع دفعٍ أو محاماة. فإنّ صديقك– إذا وثق بك في مواطن المحاماة– لم يحفِل بما تركت مما سِوى ذلك، ولم يكن له عليك سبيلُ لائمةٍ.

ولإنّ من أحزم الرأي لك في أمر عدوّك أنْ لا تذكره إلا حيث تضرُّه، وأن لا تَعُدَّ يسير الضرر له ضررًا.

بَابُ

اِعلم أنّ الرجل قد يكون حليمًا، فيحمله الحِرص على أن يقول الناس جليزٌ، والمخافةُ أن يقال مَهينٌ على أنْ يتكلَّف الجهل. وقد يكون الرجل زَميتًا[3] فيحمله الحرص على أن يقال لَسن[4]، والمخافة من أن

([1]) في النسخة السلطانية: "بالشر" والمعنى واحد.

([2]) الجور عن الحق.

([3]) الزميت: الوقور. والزِمّيت: الكثير الوقار. وفي النسخة السلطانية: "زَمِية" وهو تصحيف وخطأ.

([4]) أي فصيح.

يقال عَميَ على أن يقول في غير موضعه. فيكون هذرًا[1].

فاعرِف هذا وأشباهَه، واحترسْ منه كُلِّه.

بَابُ

إذا عَرض لك وبَدَهَك أمران لا تدري أيُّهما أصوَبُ ، فانظُرْ أَيُّهما أقربُ إلى هواك، فخالِفهُ. فإنّ أكثرَ الصواب في خلاف الهَوى.

* * *

ليجتمعْ في قلبك الافتقارُ إلى الناس والاستغناءُ عنهم! وليكنِ افتقارُك إليهم في لِينِ كلمتك لهم وحُسنِ بِشرِك بهم! ويكون استغناؤك عنهم في نزاهة عِرضِك وبقاء عِزّك.

بَابُ

لا تُجالسنّ امرأ بغير طريقته! فإنك إنْ أردتَ لِقاءَ الجاهل بالعلم، والجافي بالفقه، والعَييّ بالبيان، لم تَزِد على أن تُضَيعَ عِلمك وتُؤذي جليسك، بحمْلك عليه ثُقلِ ما لا يَعرفُ وغَمِك إياك بمثل ما يغتّم به الرجُل الفصيحُ من مخاطبة[2] الأعجم[3] الذي لا يفقه عنه.

([1]) كثير الكلام في الخطأ والباطل.

([2]) في النسخة السلطانية: مخالطة.

([3]) في ش، ع: الأعجمي.

واعلم أنّه ليس من عِلم تذكُرُه عند غير أهله إلا عابوه[١] ونصبوا له ونقضوه عليك وأبغضوك عليه، وحَرَصوا على أنْ يجعلوه جهلًا، حتى إنَّ كثيرًا من اللهْو واللعِب الذي هو أَخفُّ الأشياء على الناس لَيَحضُرُه مَن لا يعرِفُهُ، فيثقُلُ عليه ويغتمُّ به.

بَابُ

ليعلمْ صاحبك أنك تُشْفِق عليه وعلى أصحابه[٢]! وإيّاك إنْ عاشرك امْرُؤٌ أو رافقك، أنْ يَرَى منك الوَلوع[٣] بأحدٍ من أصحابه وإخوانه وأخدانه! فإنّ ذلك يأخُذُ من أعِنة القلوب مأْخّذًا. وإنَّ لُطْفَك بصاحبِ صاحبِك أَحسَنُ عنده موقِعًا من لُطْفِك به في نفسه.

بَابُ

اِتَّق الفَرَح عند المحزون! واعْلمْ أنه يَحقدُ على المُنطلَق ويشكُرُ للمُكتئب.

إعلم أنَّك ستسمَعُ من جُلسائك الرأيَ والحديث تُنكِرُهُ وتستخِفه[٤] وتستشنعه من المتحدِّث به عن نفسه أو عن غيره، فلا يكونَنَّ منك التكذيب ولا التسخيف لشيءٍ مما يأتي جليسك. ولا يُجرِئَنّك على ذلك

---

(١) في ش، ع: عادوه.

(٢) في ش، ع: ليعلم صاحبك أنك حَدِب على صاحبه. (والمعنى متعطف عليه).

(٣) المصدر بفتح الواو كما نص عليه صاحب القاموس. ومعناه الاستخفاف والسخرية.

(٤) في ش، ع: وتستجفيه. وبقية الكلام تؤيد روايتنا.

أنْ تقول: إنما حدَّث عن غيره. فإنّ كلَّ مردودٍ عليه سيمتعِضُ من الردِّ. وإنْ كان في القوم من تكرَهُ أنْ يستِقِرَّ في قلبه ذلك القولُ، لخطأ تخاف أن يعقد عليه أو مضرَّة تخشاها على أحد، فإنَّك قادرٌ على أن تنقُضَ، ذلك في سَترٍ، فيكون ذلك أيسرُ للنقض وأبعد من البِغضة.

بَابُ

اِعلمْ أنَّ البِغضَةَ خَوفٌ، والمَوَدَّة أَمنٌ فاستكثر من المَودة صامتًا. فإنّ الصمت سيدعوها إليك. وإذا ناطقتَ، فناطِق بالحُسنى فإنّ المنطقَ الحَسَن يَزيدُ في وُدِ الصديق ويَستَلُّ[١] سخيمة الوَغْر[٢].

بَابُ

اِعلم أنّ خَفضَ الصوت وسكون الريح ومشيَ القصد من دواعي المؤَدة، إذا لم يخالط ذلك بأوٌ[٣] ولا عُجبٌ. والعُجب من دواعي المَقْت والشَّنان[٤].

بَابُ

تعلّم حُسنَ الاستماع كما تتعلَّمُ حسن الكلام. ومن حسن الاستماع إمهالُ المتكلِمِ حتى ينقضِي حديثهُ، وقلَّةُ التلفُّتِ إلى الجواب، والإقبالُ

---

(١) في س، ع: "ويسلُّ" والمعنى واحد ولكن الأمير شكيب صححها فجعلها "سهل" ولا وجه للتصحيح.
(٢) أي الحقد والضغن والعداوة. وفي النسخة السلطانية" "العدوّ".
(٣) البأو هو الفخر والكبر والتيه.
(٤) البغض.

بالوجهِ والنظرِ إلى المتكلمِ، والوعيُ لما يقول.

* * *

اِعلمْ أنّ المستشار ليس بكفيلٍ، وإن الرأيَ ليس بمضمون. بل الرأيُ كله غَرَرٌ[١]. لأنَّ أمور الدنيا ليس شيءٌ منها بثقةٍ، ولأنه ليس من أمرها شيءٌ يدركه العاجز. بل ربما أعيي الحَزَمّة ما أمْكَن العَجَزةَ. فإذا أشار عليك صاحبُك برأيٍ، ثم لم تجدْ عاقبته على ما كنتَ تأمُلُ، فلا تجعلْ ذلك عليه دَينًا ولا تُلزِمهُ لَومًا وعَذلًا، بأنْ تقول: أنت فَعَلتَ هذا بي، وأنتَ أمرتَني، ولولا أنت لم أفعَل، ولا جرَم لا اطيعُك في شيء بعدها. فإن هذا كله ضَجَرٌ ولَوْمٌ وخِفةٌ.

فإنْ كنتَ أنت المشيرُ، فعَمَل برأيِك أَو تركه، فبدا صوابُك فلا تَمْنُن[٢] به ولا تُكثِرَنَّ ذِكرَهُ إنْ كان فيه نجاح، ولا تَلُمْهُ عليه إنْ كان قد استبان في تركه ضررٌ، بأن تقول: ألَم أقل بك: اِفعلْ هذا. فإن هذا مُجانب لأَدب الحكماء.

بَابُ

اِعلمْ– فيما تكلّمُ به صاحبَك– أن مما يُهَجِّنُ صواب ما يأتي به، ويَذْهبُ بطمعه وبهجته، ويُزرِي[٣] به في قبوله، عَجَلَتُك بذلك وقطْعُك

([١]) أي على غير عهده ولا ثقة. ومنه بيع الغرر مثل بيع السمك في البحر، والطير في الهواء.

([٢]) في ش، ع: فلا تمتنّ.

([٣]) زرى عليه: عابه.

حديثَ الرجُل قبل أن يُفضي إليك بذات نفسِه.

بَابُ

ومن الأخلاق السيِّئة على كل حال مُغالبةُ الرجُل على كلامه، والاعتراضُ فيه، والقَطعُ للحديث.

ومن الأَخلاق التي أنت جديرٌ بتركها- إذا حدّث الرجُل حديثًا تعرِفُهُ- أنْ لا تسابَقه إليه وتفتحه عليه وتشاركه فيه، حتى كأَنَّك تُظهر بأنك تُريد أنْ يعلموا أنّك تعلَمُ من ذلك مِثلَ الذي يعلمُ. وما عليك أن تُهنِئه ذلك وتُفرِدّهُ به.

وهذا الباب من أبواب البخل. وأبوابُه الغامضة كثيرةٌ.

بَابُ

إذا كنتَ في قومٍ ليسوا بُلغاءَ ولا فصحاءَ، فَدَعِ التطاوُل عليهم بالبلاغة والفصاحة.

بَابُ

اِعلمْ أنَّ بعضَ شدَّةِ الحَذَرِ عَونٌ عليك لِما تَحذَرُ، وأَنَّ بعضَ شدَّة الاِتقاء مِمَّا يدعو إليك ما تَتقِي.

بَابُ

إن رأيتَ نفسك تصاغرَتْ إليها الدنيا، أودعَتكَ إلى الزهادة فيها على حال تعذُّرٍ من الدنيا عليك، فلا يغرَّنَّك ذلك من نفسك على تلك الحال. فإنها ليست بزهادة ولكنَّها ضَجَرٌ، واستخذاء[1] وتعيير النفس[2] عليك عندما أعجزك من الدنيا وغضبٌ منك عليها لِما التوى عليك منها. ولو تَمَّتَ على رفضها وأمْسكت عن طلبها، أوْشَكتَ أنْ ترى من نفسك من الضَّجَر والجَزعِ أشَدَّ من ضَجرِك الأوّل بأضعاف. ولكن إذا دَعَتك نفسُك إلى رفضِ الدنيا وهي مقبلة عليك، فأَسرِع إجابَتَها.

بَابُ

اعرَف عوراتِكَ. وإيّاك أنْ تُعَرِض بأحدٍ فيما ضارعها[3]! وإذا ذُكِرَت من أحدٍ خليقة فلا تناضل عنه مُناضلَة المُدافع عن نفسه، المُصَغِر لمَا يعيب الناسُ منه، فَتُتهمَ بمثلها؛ ولا تُلِحَّ كُلّ الإلحاح. وليَكنْ ما كان منك في غير احتلاط[4]، فإن الاحتلاط من محقِقات الرِيَب.

---

(1) الاستكانة والخضوع.

(2) في ش، ع: وتغير نفس.

(3) في ش، ع: سارعها". وقد قرب الأمير شكيب من الحقيقة حينما اصلح هذا الحرف فجعله: "شاركها".

(4) الاحتلاط هو الاجتهاد في الحلف واليمين وهو المبالغة في الغضب أيضًا وقد ورد هذا الحرف على الصواب في نسخة الشنقيطي دون سائر النسخ الأخرى فقد مود فيها هكذا: "الاختلاط" بالخاء المعجمة. وهو تصحيف ظاهر.

بَابُ

إذا كنتَ في جماعةِ قومٍ أبدًا، فلا تَعُمَّنَّ جيلًا من الناس أو أمَّة من الأمم بشَتْم ولا ذَمٍ. فإنك لا تدري لعلك تتناول بعض أعراض جلسائك مخْطِئًا(١)، فلا تأمَنْ مُكافأتهم؛ أو مُتعمِدًا، فتُنسَبُ إلى السفَهِ. ولا تَذُمَّن مع ذلك اسمًا من أسماء الرجال أو النساء بِأن تقول: إنَّ هذا لقبحٌ من الأسماء! فإنّك لا تدري لعل ذلك غير موافق لبعض جُلسائك، ولعله يكون بعض أسماء الأهلين والحُرَم(٢). ولا تستصغِرَنَّ من هذا شيئًا. فكلُّ ذلك يجرَحُ في القلب. وجُرحُ اللّسان أشَدُّ من جُرح اليدِ.

* * *

اِعلَم أنَّ الناس يَخدعون أنفُسَهم بالتعريض والتوقيع بالرجال في التماس مثالبهم ومَساويهم، وتنقُّصهم(٣). وكلُّ ذلك أبْيَنُ عند سامعيه من وَضَح الصبُّحِ. فلا تكونَنَّ من ذلك في غرور، ولا تجعلَن نفسك من أهله.

بَابُ

اِعلم أن من تنكُبِ الأُمور ما يُسَمَّى حَذرًا، ومنه ما يُسَمَّى خَوَرًا. فإن استطعتَ أنْ يكون لحينِك من الأمر قبل مواقعتك إيّاه، فافعلْ. فإنّ

---

(١) في ش، ع: "ولا تعلم" بدلًا من "مخطئًا". والجملة التالية ساقطة.

(٢) هذه الجملة ينقصها كلمات كثيرة في ش، ع بحيث صارت مضطربة لا تؤدي إلى معنى بل تخالف سياق الكلام وانتظام الفكر.

(٣) في ش، ع: ونقيصتهم.

هذا الحَذَرُ. ولا تنغَمِس فيه ثم تتهَيَّبُهُ، فإنّ هذا هو الخَوَرُ. فإنّ الحكيم لا يخوض نهرًا حتى يعلم مقدار قَعرِه.

بَابُ

قد رأينا من سُوء المجالسة أنَّ الرجُل تثقُلُ عليه النعمة يراها بصاحبه. فيكون ما يشتفِي بصاحبه- في تصغير أمره وتكدير النعمة عليه- أنْ يذكر الزوال والفناء والدول، كأنَّهُ واعظٌ وقاصٌّ. فلا يخفى ذلك على من يُعنَى به، ولا غيرِهِ. ولا يُنَزَّل قولُهُ بمنزلة الموعظة والإبلاغ، ولكن بمنزلة الضَّجَر من النعمة- إذ رآها لغيره- والاغتنام بها والاستراحةِ إلى غير رَوْحٍ.

* * *

إني مخْبِرك عن صاحبٍ لي، كان من أعظم الناس في عيني. وكان رأسُ ما أعظمَهُ في عيني صِغَرَ الدنيا في عينه. كان خارجًا من سلطان فَرجِهِ، فلا يدعو إليه رِيبة[1] ولا يستخفُّ له رأيًا ولا بدنا؛ وكان خارجًا من سلطان لسانه، فلا يقول ما لا يعلَمُ ولا ينازع فيما يعلم؛ وكان خارجًا من سلطان الجهالة فلا يُقدِم أبدًا إلا على ثقةٍ بمنفعةٍ. كان أكثرَ دهره صامتًا، فإذا نطق بذَّ الناطقين. كان يُرى متضاعفًا مستضْعَفًا، فإذا جاء الجِدُّ كان كالليث عاديًا. كان لا يدخلُ في دَعوىً، ولا يشترك في مِراء، ولا يُدلِي بِحُجة، حتى يَرَى قاضيًا عَدْلًا وشُهودًا عُدُولًا. وكان لا يلوم أحدًا على ما

---

(١) في ش: مؤونة.

قد يكون العذر في مثله، حتى يعلَمَ ما اعتذارُه. وكان لا يشكو وجَعًا إلا إلى مَن يرجو عنده البُرءَ. وكان لا يستشير صاحبًا إلّا مَن يرجو عنده النصيحة. وكان لا يتبرّم، ولا يتسخّط، ولا يتشَهَّى، ولا يتشكَّى. وكان لا ينقمُ على الوليّ، ولا يَغْفُلُ عن العدُوِّ، ولا يَخُصُّ نفسَه دون إخوانه بشيء من اهتمامه وحيلته وقوته.

فعليك بهذه الأخلاق إنْ أطقتَ، ولن تطيق. ولكنَّ أخذَ القليل خيرٌ من ترك الجميع(١).

* * *

اَعلَم أَنّ خيرَ طبقاتِ أهل الدنيا طبقةٌ أصِفُها لك: مَنْ لَمْ يرتفِعْ عن الوضع ولم يتَّضيع عن الرفيع.

---

(١) تضمنت النسخة السلطانية وحدها (في هذا الموضع) فقرة واردة في "الأدب الصغير" (ص٣٠و٣١) مع زيادة ونقص في اللفظ دون المعنى. فلم نر وجهًا لتكرارها هنا.

الأدبُ الصَغِيرُ

تصدير

أرسل الله مُحَمَّدًا بالحكمة وفصلَ الخطاب، وبَعَثَهُ لِيُتّمِم مكارم الأخلاق ، فكان مُحَمَّد مُحَمَّدًا في قوله وفعله، ومثالًا حيًّا للكمالات بين قومه. وهكذا تولّى لربيتهم وتأديبهم بنفسه، حتى أصبحوا وهم هداة الأنام، وقادة الأيّام.

اِقتران القول بالعمل، وتَحَدّيِ مكارم الأخلاق في السر والعَلَن، وتَوَخِيّ الكمال في حالَتيْ الوَحدة والاجتماع: تلك هي الأركان الثلاثة التي قامت عليها دولة الإسلام.

لذلك كان حقًا أنْ تصل في أقلّ من الثمانين، إِلى ما لم يبلغه غيرها في الغابرين ولا في الحاضرين. فَأَيْنَ منها صاحب التاج والإِيوان، أو إسكندر اليونان، أو قيصر الرومان؛ وهيهات أنْ يُدانيها ما نشهَدُه الأن في غرب أَوْرُبَّة أو في شرقها المترامي الأطراف!

نعم لِمْ تَكُ إلا عَشِيّةُ أو ضُحاها، حتى دانت الدنيا من أدناها إلى أقصاها، وفي أجمل شَطْرَيْها وأفضل شِقيْها، إلى تلك الدولة الفتيّة البدوية التي كانت دعائمها، حيثما حلّت رجالاتها: حريّة وإخاء ومساواة.

أكان للناس عجبًا أن أمّة – تعتمد على هذه الدعائم وترتكز على تلك الأركان– تنشر لغة جديدة. وديانة حديثة، وحضارة بديعة؛ مُثَلتْ في

التوحيد قد اجتمعت على كلمته شعوب متباينة من سدّ الصين في أقصى الشرق إلى سِيف اقيانُس في نهاية الأندلس. وذلك كله في مدة قد لا تكفي لمرور الجيوش وعبور الاساطيل.

فما هو السرّ في هذه الاعجوبة المدهشة التي لا نرى لها نظيرًا في التاريخ على الإطلاق؟

لعمرى إنه ينحصر في كلمة واحدة، هي: مكارم الأخلاق.

لبثت الحال على هذا المنوال تسعة قرون بالتمام: تتخللها أَزْمَة يتبعها فَرَج، ويَعتَورُها عُسر يتلوه يُسر. إلى أن اضطرب دولاب تلك الحركة العمرانية الهائلة، وتضاءل تيار الأخلاق الفاضلة. فكان ما كان، ما اسميه طوْر الكمون والأفول، ولا أقول دَوْر التلاشي والزوال. وكل كِمين قَمين بالظهور، وكل أفول فإلى طلوع ثم إلى إشراق!

تقلَّص ظل هذا الملك الوسيع، وتناقصت أطراف ذلك الرواق الممدود، فتراجع الشرق إلى مهاده جاثمًا واجمًا، وحافظ على بيضته مدافعًا ومهاجمًا. وصبر أهلوه على خطوب الزمان صبر الكرام، وتربّصوا حتى تتصرّم أعاصير السياسة بسلام. والدنيا دول، "وتلك الأيام نُداولها بين الناس".

على أن تلك الأخلاق العالية ما زالت جراثيمها كامنة في النفوس، راسخة في السجايا. وما هي إلا هِزة من الانتعاش فتخرجها من زوايا

الانكماش، وتجلوها في مظاهر الحياة الصحيحة وميدان العمل الخصيب؛ وما هي إلا هَبة من أولياءِ الأمور وأهل الرأي وقادة الأفكار، ليتنَّهَ الشرقيون من هذا الرقود الطويل، فيشهَدَ العالَمُ ن فعال الأحفاد ما بهر الأبصار في أيام الأجداد، وأعني بذلك:

تطلّْب المعالي والسير إلى الأمام ... على الدوام

* * *

والحمد لله! فقد بدَتْ تباشير البعث والنشور، وكلها مؤذنة:

حَيَّ على خير العمل ! حَيَّ على الفلاح

* * *

فهل أتاك حديث مولانا العبّاس

لقد جدَّد وضع الأساس، لخير أمة أخرجت للناس. إذ نشر رايات العلم على ربوع مصر، وأعزّ دولة الأدب في هذا العصر، وقديمًا صرف همته لتوفير مصادر الثروة الطبيعية التي هي قِوام الرقّي الصحيح. ثم بذلت عنايته لإِحياءِ الآداب العربية، فاستحق شكر الناطقين بالضاد وبغير الضاد، وخلّد الكرام الكاتبون ذلك الفضل في صحيفة حسناته.

وها هو ذا قد وجّه اليوم عزيمته لإعادة الأخلاق إلى نصابها القديم وصراطها المستقيم، لعلمه أن الأمم بالأخلاق.

ولقد وفقه الله في مسعاه.

فكان له من رجالاته، خير معوان على تنفيذ مقاصده وتحقيق رغباته. وأخصهم وزيره الأكبر صاحب العطوفة محمد سعيد باشا، وعضده الأيمن في عمله الميمون ذو السعادة أحمد حشمت باشا ناظر المعارف العمومية.

أحسَّ هذا الوزير العصاميّ العباسي بحاجة النشء ورجال الغد إلى كتاب يجمع بين دفتيه تهذيب الطباع ومَلَكة الفصاحة في آن واحد. فلم ير أفضل لبلوغ هذه الغاية المزدوجة من كتابَيْ "الأدب الصغير" و "الأدب الكبير" لعبد الله ابن المُقَفّع، أمير البلغاء بلا نكير، وسيد الحكماء بلا جدال. فقرّر تدريسه في المدارس المصرية ليشبُ النشءُ على الحكمة والأدب وتنطبعَ نفوسهم الرطبة على مكارم الأخلاق منذ نعومة الأظفار. هذا إلى اعتياد التراكيب الفخْمة والأساليب الجزْلة، مع جمال التقسيم في عرض الأفكار وصياغتها في قالب الإبداع.

* * *

والآن أتقدّم بين يدَيْ أهل الأدب بهذا الكنز الكبير، كتاب "الأدب الصغير"، بعد أن صرفتُ نهاية الجهد في حسن تقسيمه، والتدقيق في

تحقيق كلماته وتفسير غوامضه وضبط حروفه بالشكل الكامل: معتمدًا على علمي القليل واطلاعي اليسير مع مراجعة الأمّهات والمظانّ في كل حرف من حروفه، بغاية ما وسعته الطاقة ووصل إِليه إلا مكان. ولا يعرِف الشوق إلا من يُكابده.

ولستُ أغمط أحدًا فضله. فإن البحاثة الشيخ طاهرًا الجزائري هو أول من وفقه الله للعثور على نسخة سقيمة من هذا الكتاب بمدينة بعلبكّ، فنسخها كما هي، وعلى عَجَل كما يقول، ثم استعان بالنقادة محمد افندي كرد علي الدمشقي فنشرها في مجلته العربية الطائرة الصيت، أيام كام يصدر "المُقْتَبَس" بمدينة القاهرة. فجاءت وفيها شيء كثير من أوجه النقص لعدم وجود نسخة ثانية للتصحيح، ولعدم تيسر الوقت الكافي للعناية بها كما هي أهله.

ولقد استخدمتُها ورجعتُ إليها في بعض الكلمات. فلصاحبيها فضل السبق ولهما نصيب من الشكر.

والله المسؤُول أن يوفقنا إياها وسائر أهل الأدب، للتعاون على إحياءِ مآثر العرب.

أحمد زكي

نظرة سريعة في تحرير الأدب الصغير

من تصفح هذا الكتاب -ولو بأدنى امعان - يرى ثلاثة أمور تكاد تكون من البديهيات:

١ – إن أسلوبه مستمد من الروح الفياضة السارية في كتاب "كليلة ودِمْنة".

٢– أنه يمتاز بزيادة المتانة في التركيب والبراعة في التعبير. لأن ابن المقفع كان هنا مؤلفًا وناقلًا. وأما في كتاب الفيلسوف الهندي فكان مترجمًا ومفسرًا.

٣– إن ابن المقفع نقل هنا عن نفسه من كتاب "كليلة ودمنة" حروفًا من الحكم والأمثال، فجاء ذلك مصداقًا لقوله في فاتحة "الأدب الصغير: وقد وضعت في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفًا فيها عون على عمارة القلوب وصقالها وتجلية أبصارها وإقامة للتدبير ودليل على محامد الأمور ومكارم الأخلاق".

هذا فضلًا عن نقله عن مصنفات أخرى. ولكنه عند اقتباسه كلامه عن كتابه الذي سارت به الركبان، وبقي إلى الآن أجمل مثال للبلاغة والفصاحة، قد اختصر أو أطال أو غير بعض الأوضاع، كما هو شأن الجهابذة من أرباب الأقلام.

واعلم أن اختلاف العبارات الواحدة في"كليلة ودمنة" وفي "الأدب الصغير" يدلنا أيضًا على صدق ما قاله المحققون وما نشهده بأعيننا من تخالف النسخ الباقية من "كليلة ودكمة"، لكثرة تداول الناس لها واعتمال الايدي فيها. والذي ظهر لنا أن النسخة التي عني بطبعها الأب الفاضل لويس شيخو اليسوعي هي (مع ما فيها أيضًا) أقرب النسخ المعروفة الآن إلى الأصل الأول. ومصداق ذلك أنها مطابقة كثيرًا للعبارات التي نقلها ابن المقفع نفسه في "الأدب الصغير".

ولعدم الاطالة أكتفي بإيراد شواهد ثلاثة:

الشاهد الأول– العبارة الواردة في "الأدب الصغير" (ص٦٩ س ١–٩).

يقابلها في "كليلة ودمنة" في طبعة الأب شيخو سنة ١٩٠٥م ما نصه: "فإن العقلاء والكرام يبتغون إلى كل معروف وصلة وسبيلًا. والمودة بين الصالحين سريع اتصالها بطيء انقطاعها ومثل ذلك مثل الكوز الذهب الذي هو بطئ الانكسار هين الإعادة والإصلاح أن إصابة كسر. والمودة بين الأشرار انقطاعها بطئ اتصالها كالكوز من الفخار يكسره أدنى عيب ثم لا وصل له أبدًا. والكريم يود الكريم على لقاء واحد أو معرفة يوم واللئيم لا يصل أحدًا إلا عن رهبة أو رغبة" (صفحة ١٢٩).

ويقابلها في الطبعة الأولى ببولاق سنة ١٢٨٥هـ المنقولة ببعض زيادات ونقص عن أول طبعة ظهرت في العالم بعناية العلامة البارون سلفستر دوساسي الفرنسي في سنة ١٨١٦م ما نصه:

"فإن العقلاء الكرام لا يبتغون على معروف جزاء والمودة بين الصالحين سريع اتصالها بطيء انقطاعها ومثل ذلك الكوز الذهب بطيء الانكسار سريع الإعادة هين الإصلاح إن إصابه ثلم أو كسر والموْدة بين الأشرار سريع انقطاعها بطيء اتصالها ومثل ذلك مثل "الكوز الفخار سريع الانكسار ينكسر من أدنى عيب ولا وصل له أبدًا والكريم يود الكريم واللئيم لا يود أحدًا إلا عن رغبة أو رهبة". (صفحة ١١).

الشاهد الثاني- العبارة الواردة في "الأدب الصغير" (ص٧٣ س١٠ و ص٧٤ س١) يقابلها في طبعة الأب شيخو ما نصه: "إن العلم لا يتم إلا بالعمل وإنما صاحب العلم يقوم بالعمل لينتفع به وإن لم يستعمل ما يعلم فليس يسمى عالمًا ولو أن رجلًا كان عالمًا بطريق مخوف ثم سلكه على علم به سمي جاهلًا ولعله أن يكون قد حاسب نفسه وجدها قد ركبت أهواء هجست بها فيما هو أعرف بضررها فيه وأداها من ذلك السالك في الطريق المخوف الذي قد عرفه ومن ركب هواه ورفض ما ينبغي أن يعمل بما جربه هو أو أعلمه به غير كان كالمريض العالم برديء الطعام والشراب وجيده وخفيفه وثقيلة ثم يحمله الشره على أكل رديئة وترك ما هو أقرب إلى النجاة والتخلص من علته. (٧٣).

ويقابلها في طبعة بولاق المذكورة ما نصه:

إن العلم لا يتم إلا بالعمل وإنما صاحب العلم يقوم بالعمل لينتفع وإن لم يستعمل ما يعلم فلا يسمى عالمًا. ولو أن رجلًا... الخ".

الشاهد الثالث– العبارة الواردة في "الأدب الصغير" (ص٧٧ س٧–٨ وص٧٨ س١) يقابلها في طبعة الأب شيخو ما نصه:

"ما يزال الرجل مستمرًا ما لم يعثر فإذا عثر مرة في أرض خبار لجّ به العثر وإن مشى في جدد" (ص١٤١).

ويقابلها في طبعة بولاق ما نصه:

"لا يزال الإنسان مستمرًا في إقباله ما لم يعثر فإذا عثر لج به العثار وإن مشى في جدد الأرض" (ص١١٨).

هذا. ويظهر أن ابن المقفع قد نقل في بعض المواضع عن حكيم أو كتاب ولم يشر إليه مراعاة للأسلوب الذي اعتمده من الأول للآخر، ثم عاد فنقل عنه مستعملًا لفظة: "وقال" كأنه سبق له ذكره. ترى ذلك في صفحات ٤٥ و٤٧ و٤٩ و٥١ و٥٢. وقد يستعمل هاتين العبارتين: "كان يقال" (ص٣٢ و٦٥ و٧٢) و"وسمعت العلماء قالوا" (ص٧٣).

وفوق ذلك فهناك نقول أخرى يتيسر الاهتداء إليها لكل من يتعاطى صناعة الأدب أو يعالج العرب.

أما مقدمة "الأدب الصغير" من صفحة ٥ إلى صفحة ١٢ فهي من بدائع ابن المقفع: أملاها عقله الفياض على قلمه السيال فجاءت كالماء الزلال بل كالسحر الحلال.

أحمد زكي

قال ابن المقفع:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ لِكُلِّ مَخْلُوق حاجَةً، ولِكُلِّ حاجةٍ غايَةً، ولكُلِّ غايَةٍ سَبيِلًا. واللهُ وَقَّتَ لِلْأمُورِ أَقْدَارَها، وهَيَّأَ إِلي الْغَايات سُبلَها، وسَبَّب الحَاجات بِبَلاَغِهَا.

فَغَايَةُ النَّاسِ وحَاجَاتُهُمُ صَلاَحُ الْمَعَاشِ والْمَعَادِ. والسبَّيِلُ إلىَ دَرْكِهَا الْعَقْلُ الصَّحِيحُ. وأَمَارَةُ صِحَّةِ الْعَقْلِ اخْتيَار الأُمُورِ بِالْبَصَرِ، وَتَنْفِذُ الْبَصَرِ بالْعَزْمِ.

ولِلْعُقولِ سَجِيَّات وغرَائِزُ بِهَا تَقْبَلُ الْأَدَبَ. وبالأَدَبِ تَنْمِي الْعُقُولُ وَتزْكُو.

فَكَما أَنَّ الْحَبَّةَ الْمَدْفُونَةَ في الْأرْضِ لاَ تَقْدِرُ َ،نْ تَخْلَعَ يَبَسَهَا وتُظْهِرَ قُوَّتَهَا وتَطْلُعَ فَوْقَ الْأَرْضِ بِزَهْرَتِها وَرَيْعِها ونَضْرَتِها ونَمائِها إلا بِمعونَةِ المَاءِ الذي يغُورُ إِليهَا في مُستَودَعِها فيذهبُ عَنها أذى اليَبَسِ والمَوتِ ويُحدِثّ لهَا بإِذنِ اللهِ القُوةَ والحَياةَ، فَكَذلِكَ سَليقة العَقْلِ مَكْنونَة في مَغرِزهَا مِنَ القَلبِ: لا قُوَّةَ لهَا ولا حَياة بِها ولا مَنفَعةَ عِندَهَا حتَّى يَعْتَمِلهَا الأّدبُ بِالمَنطِقِ، وجُلُّ المنَطِقِ بالتَّعَلُم. ليْسَ مِنْهُ حَرف مِنْ

حُروفِ مُعجَمِهِ، ولا اسْم مِن أنوَاعِ أسْمائِهِ إلا وَهُوَ مَرْوِيّ، مُتَعلم، مأْخوذ عَن إمامٍ سَابق: مِن كلامٍ أو كِتابٍ.

وذَلِكَ دَلِيل عَلى أنَّ النَّاسَ لَمْ يَبْتدِعوا أصُولهَا وَلَم يَأتِهِم عِلْمُها إلا مِن قِبلِ العَليمِ الحَكيمِ.

فإذا خَرجَ النَّاسُ مِن أَن يَكونَ لهُمْ عَمَل أصِيل وأَنْ يَقولوا قوْلًا بَديعًا، فَليَعْلَمِ الوَاصِفون المُخبِرونَ أنَّ أَحَدهُم –وَإِن أحسَنَ وأَبْلغَ– لَيسَ زَائِدًا عَلى أَن يَكون كَصاحِبِ فصُوص وَجدَ ياقُوتًا وزَبَرْجَدًا ومَرْجانًا، فَنَظمهُ قلائِدَ[1] وسُمُوطًا[2] وأَكالِيلَ[3]، ووَضَعَ كلَّ فَصٍّ مَوْضِعَه، وجَمعَ إلى كلِّ لَونٍ شِبْهَهُ وما يَزِيدُهُ بِذلِك حُسنًا. فَسُمّيَ بِذلِكَ صَانعًا رفِيقًا. وكَصَاغَةِ الذهَبِ والفِضَّةِ: صَنَعُوا مِنها ما يُعجِبُ الناسَ مِنَ الحُلِّي والآنِيَةِ. وَكالنَّحلِ وجَدَتْ ثَمَراتٍ أَخْرجَها اللهُ طَيّبةً، وسَلَكتْ سُبلًا جَعَلها اللهُ ذُلُلًا: فصَارَ ذلِكَ شِفاءً وطَعامًا وشَرابًا مَنْسوبًا إِليها، مذْكورًا بِهِ أمْرُها وصَنعَتُها.

فمَنْ جرَى عَلى لِسانِهِ كلاَم يَستَحسِنهُ أو يُسْتَحْسَنُ مِنهُ، فَلا يَعْجَبنَّ إعجابَ المُخْترِع المُبْتدِعِ. فإنهُ إنَّما اجْتَنباهُ كمَا وَصَفْنا.

---

(1) القلادة حلية من الجواهر توضع في العنق.

(2) السمط هو العقد المنظوم، وهو من حلي العنق أيضًا، وهو طويل يتدلى.

(3) الاكليل عصابة تزين بالجوهر تضعها المرأة على شعرها. وأما التاج فهو أعم وأشمل لأنه يوضع على الرأس كله، وهو خاص بالملوك. ولذلك يقولون: "العمائم تيجان العرب".

ومَنْ أَخَذَ كَلامًا حَسنًا عَن غَيرِهِ فَتكَلَّمَ بهِ في مَوضِعِه وعَلى وَجْهِهِ، فَلا تَرَينَّ عَليهِ في ذَلكَ ضُؤُولَةً. فإنهُ مَنْ اعِينَ عَلى حِفظِ كَلامِ المُصيبينَ وهُدىَ للاِقتداءِ بالصَّالِحين وَوفقَ للأَخْذِ عَنِ الحُكماء –ولا عَليهِ أَنْ لا يَزءدادَ– فقَدْ بَلغَ الغَايةَ. ولَيسَ بِناقِصِهِ في رَأْيِهِ. فإِنَّما إِحياءُ العَقلِ الذي يَتمُ بهِ ويَسْتحكِمُ خِصال سَبع: الإِيثارُ بالمَحَبةِ، وَالمُبالغَةُ في الطَلبِ، والتَّثبُّتُ في الاخْتِيارِ، والاعْتِيادُ للخَيْرِ، وحُسنُ الرَّعيِ، والتَعهُّدُ لَما اخْتِير واعْتُقِدَ، ووضْعُ ذلِكَ مَوْضِعَه قولًا وعَملًا.

أمَّا المحَّبةُ، فإِنهَا تُبلِغُ المَرْءَ مَبلَغَ الفَضلِ في كُل شيءً مِن الدُّنيا والآخِرةِ حِينَ يُؤْثِرُ بِمحَبَّتِهِ. فلا يكُونُ أمرًا ولا أحْلَى عَندَهُ مِنهُ.

وأَما الطَّلبُ، فإِنَّ النَّاسَ لا يُغنِيهم حُبُّهم ما يُحِبونَ وهَواهُم ما يَهْوِوْن عَن طَلبِه وابتِغائِه. ولا تُدرِكُ لهُم بُغْيتُهُمْ ونَفاسَتُها في أنفُسِهِم، دونَ الجِدّ والعمَلِ.

وأمَّا التَّثبُّتُ والتَّخيُّرُ، فإنَّ الطَّلَب لا ينفَعُ إلا مَعهُ وبهِ. مِن طالِبِ رُشدٍ وجَدهُ والغَيَّ معًا. فاصْطَفى مِنهُما الذي مِنهُ هَربَ، وألغَى الذي إلَيه سَعَى. فإذا كانَ الطالِبُ يَحوي غَيرَ ما يُريدُ –وهُوَ لا يشُكُّ في الظَّفرِ– فما احقَّهُ بِشدَّةِ التَّبيينِ وحُسنِ الابتِغاءِ!

وأمَّا اعتِقادُ الشَّيء بعد اسْتِبانتهِ، فهو ما يُطلبُ من إِحرازِ الفَضلِ بعد مَعرِفتِهِ.

وأَمَّ الحِفظُ والتَّعهدُ، فهُو تَمامُ الدَّركِ. لأنَّ الإنسانَ مُوَكَّل بهش النِسيانُ والغفْلةُ. فلا بدَّ له، إذا اجْتَبى صَوابَ قَول أو فِعل، من أن يَحفَظَه عليه ذِهْنهُ لأَوانِ حَاجتِهِ.

وأمَّا البَصرُ بالمَوضِعِ، فإنما تَصيرُ المنافِعُ. كلها إلى وَضعِ الأشياءِ مواضِعَها. وبِنا هذا كُلِّهِ حاجَة شدِيدة. فإنَّا لمْ نوضعْ في الدُّنيا مَوضِع غِنَى وخَفضٍ، ولكِن بِموضِع فاقةٍ وَكدٍّ . ولَسنا إلى ما يُمسِك أرْماقَنا من المَأكَل والمَشرَبِ بِاحْوَجَ مِنا إلى ما يُثبِتُ عُقولَنا من الأدّبِ الذي بِهِ تَفاوتُ العُقولِ. وليس غِذاءُ الطعَامِ بِأسرَع في نَباتِ الجَسَدِ من غِذاء الأدَبِ في نبَاتِ العقلِ. ولَسنا بِالكَد في طلَب الْمتاعِ الذي يلْتمَس به دَفعُ الضَّرر والغلَبَة بِاحَقَّ مِنَّا بِالكدِ في طَلَب العِلمِ الذي يُلتَمسُ به صلاحُ الدِين والدُّنْيا.

* * *

وَقد وضعْتُ في هَذا الكِتابِ من كلامِ النَّاس المَحفوظِ حُروفًا فيها عَون على عِمارة القُلوب وصِقالها وتَجلِية ابصَارها، وإَحياء للتَّفكير، وإقامة للتَّدبير، ودلَيل عَلى مَحَامِد الأمُورِ ومَكارِمِ الأخلاقِ. إَن شاءَ اللّٰهُ!

* * *

الواصِفونَ أكثرُ من العارفينَ، والعارِفونَ أكثرُ من الفاعِلين.

فَلْينظُرِ امرُؤ اين يَضعُ نَفسه. فإنَّ لكُل امرِئ لم تدْخُل عليهِ آفة نصيبًا من اللبِّ يَعيشُ بهِ، لا يُحب أنَّ له بِه من الدُّنيا ثَمنًا. وليس كُل ذِي نَصيبٍ من اللبِّ بِمُستوجِبِ أن يُسمى في ذَوِي الألبابِ، ولا يُوصَف بصِفاتِهم. فَمن رَام أن يَجعلَ نفسَهُ لِذلك الاسِم والوَصفِ أهْلًا، فليأْخُذ له عَتادَه[1]، وليُعِدَّ له طول أيامِه، وليُؤثِرهُ على أهوائِه. فإنَّه قد رامَ جَسيمًا لا يصلُحُ على الغَفلةِ، ولا يُدرَكُ بالمَعْجَزَةِ، ولا يَصيرُ على الأَثَرةِ[2]. وليس كَسائِرِ أمورِ الدُّنيا وسُلطانها ومالِها وزِينتها التي قد يُدرِكُ منها المُتوَاني ما يَفُوتُ المُثابِر، ويُصيبُ منها العاجِزُ ما يُخطِئُ الحازمَ.

* * *

وليَعلَم أن على العاقِلِ أُمورًا إذا ضَيَّعَها حَكَم عليه عَقْلُه بِمُقارنةِ الجُهالِ.

فعَلى العاقِل أن يَعلَم أنَّ النَّاس مُشترِكون مُستَوُونَ في الحُب لِما يُوافِق والبُغضِ لِما يُؤذِى، وأَنَّ هّذهِ مَنزِلة اتَّفق علَيها الحَمَقَى وإلا كْياسُ، ثم اختَلَفوا بَعدها في ثلاثِ خِصالٍ هُنَّ جِماعُ الصَّوابِ وجِماعُ الخَطَاءِ، وعِندهُن تَفرقَتِ العُلماءُ والجُهالُ، والحَزمَةُ والعَجَزةُ.

---

(1) العتاد: التهيؤ والاستعداد والاستحضار للأمور والحوادث.

(2) هي اختيار الإنسان لنفسه الأشياء الحسنة دون أصحابه.

الباب الأول[١] من ذّلك: أنَّ العَاقِل ينظُرُ فيما يُؤذِيهِ وفيما يَسُرُّهُ، فيعلمُ أن أحَق ذلك بالطَلَبِ (إنْ كان مِما يُحب) وأحَقهُ بالاتِقاءِ (إن كان مِما يَكرَهُ) أطْولُهُ وأَدوَمُهُ وأبقاهُ: فإذا هو قد أبصَرَ فَضلَ الآخرَة على الدُّنيا، وفَضلَ سرورِ المُروءَةِ على لَذةِ الهَوى، وفَضل الرَّأْيِ الجامِع الذي تَصلُحُ به الأَنْفُس والأعْقابُ على حاضِر الرَّأْي الذي يُستَمَعُ به قلِيلًا ثُم يَضْمحِلُ، وَفَضلَ الأكَلاتِ على إلاكلَة والسَّاعات على السَّاعةِ.

الباب الثاني[٢]: ان يَنظر فِيما يؤثِرُ من ذلك فَيضَع الرَّجاءَ والخَوفَ فيه مَوضعَهُ. فلا يجعلُ اتِّقاءَهُ لغير المَخُوف ولا رَجاءَهُ في غَيرِ المُدرَكِ. فيَتوَقىَّ عاجل اللذاتِ طَلَبًا لآجِلها، ويحَتمِلُ قريبَ الأذى تَوقِيًا لِبَعِيدِه. فإذا صَار إلى العَاقِبةِ، بَدَا له أنَّ فِرارهُ كان تَورُّطًا وأن طَلَبَهُ كان تنَكبًا.

الباب الثالث[٣]: هو تَنفيذُ البصَرِ بالعَزمِ، بعد المَعرِفة بفَضل الذي هو ادْوَمُ، وبعد التَّثَبُّتِ في موَاضِعِ الرَّجاء والخَوف. فإن طالِب الفَضل بغَير بَصر تائِه حَيرانَ، ومُبصِرُ بغير عَزمٍ ذُو زَمانةٍ مَحروم.

وعلى العَاقلِ مخاصَمةُ نَفسِه ومحاسبيُها والقَضاء عليها والإِثابَةُ والتنْكيلُ بها.

---

(١) أي الخصلة الأولى من ثلاث الخصال.

(٢) أي الخصلة الثانية.

(٣) أي الخصلة الثالثة.

أمَّا المُحاسبةُ، فيُحاسبُها بمَا لها. فإنهُ لا مالَ لها إلا أيامُها المَعدودةُ التي ما ذَهَب مِنها لمْ يُسْتخْلَفْ كما تسْتخلْفُ النَّفَقَةُ، وما جُعِل منها في البَاطِل لم يَرْجَع إلى الحَقِ. فَيَتنَبَّهُ لهذه المُحاسبةِ عِند الحَوْلِ إذا حَالَ، والشَّهرِ إذا انقَضَى، واليَومِ إذا وَلَّى. فينْظُر فيما افنَى من ذلك، وما كَسبَ لِنفسِهِ، وما اكتسَبَ عليها: في أمْرِ الدّينِ وامْرِ الدُّنيا. فيَجمَعُ ذلك في كِتابٍ فِيه إِحصاء، وجَدٌّ، وتَذكِير للأمُور، وتَبكِيت للنَّفسِ، وتّذليل لها حتَّى تَعتَرِف وتُذْعِنَ.

وأمَّا الخُصومَة، فإن من طِباعِ النَّفس الآمِرةِ بالسُوءِ أن تَدَّعِي المعَاذيرَ فيما مَضى، والأمَاني فِيما بَقى، يقدع عليها مَعاذِيرها وعِلَلَها وشُبُهاتِها.

وأمَّا القَضَاء، فإنهُ يَحكُم فِما أرَادت من ذلك على السَّيئَةِ بأنَها فاضِحَة مُرْدِيَة مُوبِقَة، ولِلحَسَنةِ بأنها زَائِنَة مُنجِيَة مُربِحَةُ.

وأمَّا الإَثابَة والتَّنكيل، فإنه يَسُر نَفسَهُ بِتذَكر تِلك الحَسَنات ورَجاء عَواقِبها وتأمِيل فَضْلِها، ويُعاقِب نَفسَه بالتَّذَكُر للسَّيئاتِ والتَّبَشُّعِ بها والاقْشِعرار منها والحُزنِ لها.

فأَفضَل ذَوِي الأَلباب أَشَدُّهُم لِنفسِه بهذا أَخْذًا، وأَقلَهُم عَنها فيه فَترَةً.

* * *

وعَلى العَاقِل أن يَذكُر المَوت في كل يَومٍ ولَيلةٍ مِرارًا، ذِكرًا يُباشِر به القُلوبَ ويَقذَعُ الطِّماحَ[1]. فإن في كَثرة ذِكرِ المَوت عِصْمَةً من الأَشَرِ، وأمَانًا —بِإذن اللهِ– مِن الهَلَع.

* * *

وعلى العَاقِل ان يُحصِي على نَفسِهِ مَساويَها في الدّين وفي الأخَلاقِ وفي الآدابِ: فيَجمَعُ ذلك كُلهُ في صَدرِه أو في كِتابٍ؛ ثُم يُكثِر عَرضَه على نفسِهِ، ويُكلفُها إَصلاحَهُ، ويُوظِّفُ ذلك عليها توْظِيفًا من إِصلاحِ الخَلَّةِ والخَلَّتَينِ والخِلالِ في اليَومِ أو الجُمعَةِ أو الشَّهرِ.

فكُلَّما أَصْلح شيئًا، مَحاهُ؛ وكُلَّما نَظَر إلى مَحْوٍ استَبشرَ؛ وكُلما نَظر إلى ثابِتٍ، اكتَأبَ.

* * *

وعَلى العَاقِل أن يَتَفَقد مَحاسِن النَّاس ويَحفظَها على نَفسِه، ويَتَعهَدها بذلك مِثل الذي وَصفَنا في إصلاحِ المَساوِي.

* * *

وعَلى العَاقِل أن لا يُخادِن ولا يُصاحِب ولا يُجاوِز من الناس — ما استَطاعَ– إلا ذا فَضلٍ في العِلم والدّين والأخَلاقِ، فيَأخُذَ عَنه؛ أوْ مُوافِقًا له على إِصلاح ذَلك؛ فَيُؤيِد ما عِندَه، وإن لَم يكُن له عَليهِ فَضل.

---

[1] يكف النفس ويمنعها عن النفار والاسترسال في الشهوات.

فإنَّ الخِصال الصَّالِحة من البِر لا تَحيا ولا تَنْمِي إلا بالمُوافِقين والمُؤيِدين. وليس لِذِي الفضل قَريب ولا حَميم أقْرَبَ إليهِ مِمَّن وافَقه عَلى صالِح الخِصال فزَادَه وثَبَتَهُ.

ولِذَلك زَعَم بعض الأوَّلِين أنَّ صُحبة بَليدٍ نَشَأ مع العُلماء أَحَبُّ إليهِم مِن صُحبَة لَبيبٍ نَشأ مع الجُهالِ.

* * *

وعَلَى العاقِل أن لا يَحْزَن على شيء فاتَهُ من الدُّنيا أو تَوليَّ، وأن يُنزِل ما أَصابَهُ مِن ذلِك ثم انقَطَع عنه منزِلَة ما لَم يُصب، ويُنزِل ما طَلَبَ مِن ذلِك ثُم لَم يُدرِكهُ مَنزِلَة ما لَم يَطلُب. ولا يَدَع حَظهُ مِن السُّرور بِما أَقَبل منها، زلا يَبلُغَنَّ ذلِك سُكرًا ولا طُغيانًا. فإن مع السُّكر النِسيانَ، ومَع الطُّغيانِ التَّهاوُن. ومن نَسِيَ وتَهاون، خسِر.

* * *

وعَلى العَاقَل أنْ يُؤنِس ذَوِى الألبَابِ بنَفسِه ويُجَرِّئَهُم عليها حتَّى يَصِيروا حَرسًا على سَمعِه وبَصرِه ورَأيِه: فَيَستنِيم إلى ذَلك ويُرِيح له قَلبَهُ، ويَعَلمَ أنَّهُم لا يغفُلون عَنهُ إذا هو غَفَل عن نَفسِه.

* * *

وعَلى العاقِل –ما لَم يَكُن مَغلوبًا على نَفسِه– أن لا يَشغَلَهُ شَغَل عن أربَعِ ساعاتٍ: ساعةٍ يَرفَع فيها حاجَتهُ إلى رَبِّه، وساعةٍ يحَاسِبُ فيها نَفسَه، وساعَةٍ يُفْضي فيها إلى إخوانِه وثِقاتِه الذين يَصدُقُّونَه عن عُيوبِه ويَنصحونَه في امْرِه، وساعةٍ يُخلِي فيها بين نَفسِه وبينَ لّذتِها مِمَّا يحِلُّ ويَجْملُ. فإن هذه الساعَة عَوْن على السَّاعاتِ الأخَرِ، وإنَّ استِجمامَ[1] القُلوب وتَودِيعها[2] زيادَةُ قُوةٍ لها وفَضلُ بُلْغَةٍ.

* * *

وعلى العاقِل أن لا يكون راغِبًا إلا في إحْدَى ثَلاثٍ:

تَزوُّدٍ لِمعادٍ أو مَرَمةٍ لِمعاشٍ، أو لَذَّةٍ في غَير مَحْرمٍ.

* * *

وعلى العاقِل أن يجْعلَ النَّاس طبقَتَينِ مُتَباينَتَينِ، ويَلبَس لهُم لِباسينِ مُختَلِفَين: فطبَقَة مِن العامَّة، يَلبَسُ لهُم لِباس انقِباضٍ وانْحِجازٍ وتَحفُّظٍ في كُل كَلمةٍ وخَطوةٍ؛ وطَبَقة مِن الخَاصةِ، يخلَعُ عِندهُم لِباس التَّشدُّدِ ويلبَسُ لِباس الأنَسَةِ واللَّطَفةِ والبِذلَةِ والمُفاوَضةِ. ولا يُدْخل في هذِه الطَّبَقَةِ إلا واحِدًا مِن الأَلف وكُلُّهم ذو فَضلٍ في الرَّأي، وثِقةٍ في المَوَدَّة، وأمانَةٍ في السِّرَّ، ووفاءٍ بالإِخاء.

([1]) أي استراحتها.

([2]) أي تركها مستقرة مطمئنة.

وعلى العَاقل أن لا يَستَصغر شيئًا مِن الخَطاءِ في الرَّأي، والزَّلَل في العِلم، والإغفال في الأُمور. فإنهُ مَن استَصغَر الصغير أوْشَك أن يَجمَع إليهِ صغيرًا وصَغيرًا، فإذا الصَّغِيرُ كَبِير. وإنما هي ثُلَم يَثْلِمُها العَجْز والتضْييعُ. فإذا لَم تُسَد أوشَكَت أن تَتَفجَّر بما لا يُطاق. ولَم نَر شيئًا قَط إلا قد أُوتيَ مِن قَبل الصَّغير المُتهاوَن به: قد رَأينا المُلكَ يُؤتَي مِن العَدُو المُحتَقَرِ بِه، ورَأيْنا الصحَّة تُؤتَى من الدَّاء الذي لا يُحفلُ بِه، ورأينَا الأنْهارَ تَنبثِقُ من الجَدوَل الذي يُستخَفُّ بهِ.

وأقَلُّ الأمورِ احتِمالًا للضَّياع المُلكُ، لأنهُ ليس شَيء يَضيعُ –وإنْ كان صَغيرًا– إلا اتصَلَ بآخَر يكونُ عَظيمًا.

* * *

وعلى العاقِل أنْ يَجبُن عن المُضيِّ على الرَّأي الذي لا يَجِدُ علَيهِ مُوافِقًا، وإن ظَنَّ أنهُ على اليَقينِ.

وعلى العاقِل أن يَعرِف أنَّ الرَّأي والهَوَى متَعادِيان، وأن من شأنِ النَّاس تَسويف الرَّأي وإسْعاف الهَوى. فُيخالِف ذلك ويَلْتمِس أن لا يَزالَ هَواهُ مُسوَّفًا ورأيُه مُسعَفًا.

وعلى العاقِل إذا اشتَبَه عليه أَمرانِ فلَم يَدْرِ في أيِهِما الصوَّاب أن يَنظُر أهواهُما عِندَهُ، فيَحذَرَهُ.

* * *

ومَن نَصبَب نَفسَهُ لِلناسِ إماِمًا في الدِّين، فعَليهِ أن يَبدَأ بِتعلِيم نَفسِه وتَقويمها في السِيرَة والطُعْمَة[1] والرَأي واللَّفظِ والأَخذَانِ. فيكُون تَعلِيمهُ بسيرَتِه أبَلَغَ مِن تَعلِيمهِ بِلِسانِه فإنَّه كما أنَّ كلامَ الحِكمةِ يُونِقُ الأَسماعَ، فَكَذَلِك عَملُ الحِكمَة يَروقُ العُيون والقُلوب. ومُعلِم نَفسِه ومُؤَدبيها أحَقُّ بالإِجلالِ والتفْضيلِ مِن مُعلِم الناس ومُؤَدّبِهم.

* * *

وِلايةُ الناس بَلاء عَظيم. وعَلى الوَالي اربَعُ خِصال هيَ أعمِدةُ السُّلطانِ وأرْكانُه التي بها يَقُوم وعلَيها يَثْبُت: الاجتِهاد في التَّخيُّر، والمُبالغَةُ في التَقدُّمِ، والتعَهُّد الشَّديدُ، والجَزاءُ العَتيدُ.

فأمَّا التخَيُّر لِلعُمال والوُزراءِ، فإنه نِظام الأَمرِ ووَضعُ مَؤونَة البَعيدِ المُنتَشرِ. فإنَّهُ عَسَى أن يَكونَ بِتخَيُّره رجلًا واحِدًا قَد اخْتارَ ألْفًا. لأنَّه مَن كانَ مِن العُمالِ خِيارًا فَسَيختارُ كمَا اختِيرَ. ولعَلَّ عُمَّال العامِلِ وعُمال عُمَّالِه يَبلُغونَ عَددًا كَثيرًا. فمَن تَبيَّن التخَيَّر فقَد أخَذَ بِسبَب وَثيق، ومَن أسَّس أمْرَهُ على غَيرِ ذلِك لمْ يَجِد لِبنائِه قِوامًا[2].

وأمَّا التقدم والتَّوْكيد، فإنه ليسَ كُل ذِي لُبٍّ أو ذِي أمانَةٍ يعرِفُ وُجوهَ الأمُور والأعْمالِ. ولوْ كانِ بِذلكَ عارفًا، لَم يكُن صاحِبهُ حَقِيقًا أن يَكِلَ ذلِك إلى عِلمهِ دُون توْقِيفهِ عليه وتَبيِينه لهُ والاحتِجاج عَليه بهِ.

---

(1) أي وجه المكسب. يقال: فلان عفيف الطعمة. أي نقي المكسب.

(2) القوام بكسر القاف: نظام الأمر وعماده وملاكه الذي يقوم به.

وأمَّا التَّعَهُّد، فإن الوالي إذا فَعَل ذلِك كان سَميعًا بصِيرًا، وإنَّ العامِل إذا فُعلَ ذلك بهِ كانَ مُتحَصِنًا حريزًا.

وأمَّا الجَزاءُ، فإنهُ تَثبيتُ المُحسِن والرَّاحةُ مِن المُسِيءِ.

* * *

لا يُستطَاع السُلطان إلا بِالوُزراء والأعْوان، ولا يَنفَعُ الوُزَراء إلا بالمَوَدةِ والنصِيحة، ولا المَوَدةُ إلا معَ الرَّأْي والعَفافِ.

وأعْمالُ السلطانِ كثيرَة، وقَليل ما تُستَجمَعُ الخصالُ المَحمودَة عِند أحَدٍ. وإنَّما الوَجه في ذَلِك والسَّبيِل الذي بهِ يَستقيمُ العَملُ أن يكُونَ صاحِب السُلطانِ عالِمًا بأمُورِ مَن يُريد الاستِعانة بهِ، وما عِند كُل رَجل مِن الرَّأي والغنَاءِ، وما فِيه مِن العُيوب. فإذا استقَرَّ ذلِك عِنده، عَن عِلمِه وعِلم مَن يأْتمِن، وجَّهَ لِكُل عَملٍ مَن قد عَرَف أنَّ عِندَه مِن الرَّأي والنَّجدَة والأمانَةِ ما يَحتاجُ إليهِ فِيه، وأنَّ ما فِيه إلى مُروَّة –إن كانت عِندهُ– ولا يأْمَنُ عُيوبَه وما يَكرَهُ مِنهُ.

ثم عَلى المُلوكِ، بَعد ذلِك، تعاهُدُ عُمالِهم وتَفقُّدُ امورِهم، حَتَّى لا يَخفَى عَليهِم إِحسانُ مُحسِن ولا إِساءةُ مُسيءٍ.

ثمَّ عَليهِم بَعدَ ذلِك، أن لا يَتْرُكوا مُحسِنًا بِغَير جَزاءٍ، ولا يُقِرُّوا مُسِيئًا ولا عاجِزًا عَلى الإِساءَةِ والعَجزِ. فإنهُم إن تَرَكوا ذَلِك، تَهاوَن المُحسِن، واجترَأ المُسِيءُ، وفَسد الأمرُ، وضاعَ العَمَلُ.

اقتصارُ السَّعي إبقاء لِلجِمامِ[1]، وفي بُعدِ الهِمة يكُونُ النَّصبُ. ومَن سَألَ فَوقَ قدرَتِهِ استَحقَّ الحِرمانَ. وسُوءُ حَملِ الغِنَى أن يكون عِند الفَرحِ مَرِحًا، وسُوءُ حَملِ الفَاقةِ أن يكون عِندَ الطَّلَب شَرِهًا. وعارُ الفَقرِ أهْوِنُ مِن عارِ الغِنىَ. والحَاجَة مَع المَحَبةِ خَير مِن الغِنَى مع البِغْضَةِ.

* * *

الدُّنيا دُوَل. فمَا كان لَك مِنها أتاكَ عَلى ضَعفِك، وما كانَ عَليكَ لَم تَدْفَعْهُ بقُوَّتِكَ.

* * *

إِذا جُعِل الكَلامُ مَثلًا، كان ذَلِك أوضَحَ لِلمَنطقِ وأَبْيَنَ في المَعْنى وآنَقَ لِلسَّمعِ وأوْسَع لِشُعوبِ الحَديثِ.

* * *

أشَدُّ الفَاقَة عَدَمُ العَقْلِ، وأشَدُّ الوَحْدَة وَحدَةَ اللجُوجِ. ولا مالَ أفْضَلُ مِن العَقلِ، وأشَدُّ الوَحدَةِ وَحدَةَ اللجُوجِ. ولا مالَ أفضَلُ مِن العَقلِ، ولا امِيسَ آنَسُ مِن الاستِشارَةِ.

* * *

(1) أي الراحة.

مِما يُعتَبَرُ بشه صلاحُ الصالِح وحُسنُ نَظرِه لِلناسِ، أن يكونَ إذا اسْتُعْتِبَ المُذنِبَ سَتورًا لا يُشيعُ ولا يُذيعُ، وإذا اسْتُشِيرَ سَمحًا بالنصيحَةِ مُجتَهِدًا لِلرَّأْيِ، وإذا اسْتَشارَ مُطَّرحًا لِلحَياء مُنَفّذًا لِلحَزمِ مُعتَرفًا لِلحَقِّ.

* * *

أَلْقَسْمُ[1] الذي يُقْسَمُ لِلناس ويُمتَعونَ بشه نَحوَانِ: فَمِنهُ حارس ومِنهُ مَحروس. فالحَارسُ العَقلُ، والمَحْروسُ المالُ. والعَقلُ –بإذن اللهِ– هوَ الذي يُحرِزُ الحَظ، ويُؤنِسُ الغُربَة وَينفِي الفَاقَة، ويُعرِفُ النَّكِرةَ، ويُثمِر المَكسبَة، ويُطيّبُ الثَّمِرَة، ويُوَجِهُ السُّوقَة عِند السُّلطانِ، ويَستَنزِلُ لِلسُّلطانِ نَصِيحة السُّوقَةِ، ويُكسِبُ الصَّديقَ، ويَكْفي العَدُوَّ.

* * *

كَلامُ الَّلبيبِ –وإِن كانَ نَزْرًا– أدَب عَظيم. ومُقارفَةُ المَأثَم –وإِن كان مُحتقرًا– مُصيبة جَليلة. ولِقاء الإخوان– وإن كانَ يَسيرًا– غُنْم حَسن.

* * *

قَد يَسعى إلى أبَوابِ السُّلطان أَجناس مِن الناسِ كثير. أَما الصَّالِح فَمَدعو، وأمَّا الطَّالِح فمُقتحِم، وأمَّا ذو الأدَب فَطالِب، وأما مَن لا أَدَب لهُ فمُختلِس، وأمَّا القَويُّ فَمُدافِع، وأمَّا الضَعيفُ فَمدفُوع، وأمَّا المُحسِنُ

([1]) أي العطاء أو الرزق. ولا يستعمل إلا مفردًا فلا جمع له.

فمُستثيب، وأمَّا المُسِيء فمُستجير. فهو مَجمَع البَرّ والفاجِر، والعالِم والجاهِل، والشَّريف والوَضيعِ.

* * *

اَلناس – إلَّا قَليلًا مِمَّن عَصَم الله– مَدخُولون في أمُورهم: فَقائِلهم باغٍ، وسامِعهُم عَيَّاب، وسائِلهُم مُتَعنِت، ومُجيبهُم مُتكلِف، وواعِظهُم غَيرُ مُحققٍ لِقولِه بالفْعْلِ، ومَوعوظُهُم غَيرُ سَليم مِن الاستِخفاف، والأمينُ مِنهم غيرُ مُتحفِظٍ مِن إتيان الخِيانَة، والصَّدُوق غَيرُ مُحترسٍ مِن حَديث الكَذَبةِ، وذو الدين غيرُ مُتورعٍ عن تَفريط الفَجرَة، والحَازِم مِنهم غيرُ تارِكٍ لِتَوقُّعِ الدوائِر.

يَتناقضُون البِناءَ، ويتَراقبون الدُّوَل، ويَتعاتبون بالهَمز. مُولعون في الرَّخاء بالتَّحاسُد، وفي الشِدَّة بالتَّخاذُل.

* * *

كَم قد انتُزعَت الدُّنيا مِمَّن استَمكَن منها واعتَكَفت له! فأَصبَحَت الأعمَالُ أَعمالهُم والدنيا دُنيا غيرهم، وأَخَذ متاعهُم مَن لَم يحمَدهُم، وخَرجوا إلى مَن لا يعذُرُهُم.

فأصْبحنا خَلفًا مِن بَعدهِم، نَتوقعُ مِثل الذي نَزلَ بِهم. فنحنُ، إذا تَدبَّرنا أُمورهُم، أَحِقاَّء أن نَنظُر ما نَغبِطُهم بهِ فَنَتبِعَهُ وما نَخافُ عليهم مِنه فَتَجَنبَهُ.

كان يُقال إنَّ الله تَعالى قَد يأمُرُ بِالشيءِ ويَبتَلى بِثِقَلِهِ ويَنهىَ عن الشيءِ ويبتَلي بِشهوتِهِ.

فإذا كُنت لا تَعملُ مِن الخَيرِ إلا ما اشتَهَيتهُ ولا تَترُكُ مِن الشَّرِ إلا ما كَرهتَهُ، فَقد أَطلَعتَ الشيطانَ على عَورتِك وأَمكنتَهُ مِن رُمتكَ[1]. فأَوشَك أن يقَتحِم عليك فِيما تُحبُّ مِن الخَير فيُكرِههُ إليكَ، وفيما تَكرهُ مِن الشَّرِ فيُحبّبهُ إليكَ. ولكن يَنبغي لَك في حُب ما تُحِب مِن الخَير التَّحامُل على ما يُستَنْقَلُ مِنه؛ ويَنبَغِي لَك في كَراهَةِ ما تَكرَهُ مِن الشَّر التَّحَبُّبُ لمَا يُحَبُّ منهُ.

* * *

الدُّنيا زُخرُف يَغلِب الجَوارِح، ما لم تَغلِبهُ الألبابُ. والحَكيمُ مَن يُغضي عَنه ولَم يَشْغل بِه قَلبَه: اطَلَعَ مِن أدناه فِيما وراءَه، وذَكّر لواحِق شَرِه، فأكَل مُرَّهُ وشَربَ كَدِرَهُ لِيحلَوْ لي لَه ويَصفو في طولٍ مِن إقامِة العَيش الذي يَبقَى ويدوم، غَير عائِف للرُّشد إن لم يلْقَه بِرضاء، ولم يَأتِه مِن طريق هَواهُ.

* * *

لا تأْلَف المُسْتَوْخِمَ، ولا تُقِم على غير الثِقَة.

---

(1) أي مقودك.

قد بَلغ فَضلُ الله على النَّاس مِن السَّعَةِ وبَلغَت نِعمَتُه عليهم مِن السُّبوغِ، ما لو أنَّ أَخَسَّهُم حَظًّا وأَقَلَّهُم مِنهُ نَصيبًا وأَضْعَفهُم عِلمًا وأعْجَزهُم عَملًا وأَعياهُم لِسانًا، بَلَغ مِن الشُّكر لهُ والثَّناءِ عَليه بما خَلَص إليه من فَضلِه ووصَل إليهِ مِن نِعمَتِه ما بَلغَ له مِنهُ أعْظَمهُم حَظًا وأَوفَرهُم نصيبًا وأَفضَلهُم عِلمًا وأقواهُم عَملًا وأَبسطُهُم لِسانًا، لكانَ عمَّا استَوْجَب الله عَلَيهِ مُقَصِرًا وعَن بُلُوغ غاية الشُّكر بَعيدًا.

ومَن أَخَذ بِحَظِه مِن شُكرِ الله وحَمدِه ومَعرِفة نِعَمِه والثَّناء عَليهِ والتَّحميدِ لهُ، فقد استَوجَب بذلك مِن أَدائِه إلى الله والقُربةِ عِندهُ والوَسيلة إليه والمَزيد فيما شَكَرهُ عَليه مِن خَيرِ الدُنيا وحُسنِ ثَواب الآخِرَة.

* * *

افْضَل ما يُعْلَمُ بِه عِلمُ ذي العِلم، وصَلاحُ ذي الصلاحِ أن يَسْتَصلِحَ بِما أُوتيَ مِن ذلك ما استْطاع مِن النَّاس ويُرَغّبَهُم فيما رَغِب فيهِ لِنفسِهِ مِن حُب اللهِ، وحُب حِكمَتهِ، والعَمل بِطاعَتِه، والرَجاء لِحُسن ثَوابِه في المَعَاد وأنْ يُبِينَ الذي لَهُم مِن الأَخذِ بِذلِك والذي عَليهِم في تَركِه، وأن يُورّثَ ذلك أهلَهُ ومَعارفَهُ لِيلحَقَهُ أجرُهُ مِن بَعدِ المَوت.

* * *

الدّينُ أفضَل المَواهبِ التي وصَلت من الله إلى خَلقِه وأعظمُها مَنفَعةً، واحمدُها في كُل حِكمةٍ. فقد بَلغَ فَضلُ الدّينِ والحِكمة أن مُدِحا على ألسِنَة الجُهَّال، على جَهالتِهم بهما وعَماهُم عنهُما.

أحَقُ الناس بالسُّلطان أهْل المَعرفَة، وأحَقهُم بالتدبِير العُلماء، وأحَقهم بالفَضل أَعْوَدُهُم على الناس بِفَضلِه، وأحقهُم بالعِلم أحسَنُ تأدِيبًا، وأَحَقهُم بالغِنَى أهلُ الجُودِ، وأقربهُم إلى الله أنْفَذُهم في الحق عِلمًا وأكملُهُم به عَمَلًا، وأحكمُهُم أبعدُهُم من الشَّك في اللهِ، وأصوبُهُم رَجاءً أوثَقُهُم بالله، وأَشَدُّهم انتِفاعًا بعلِمِه أبعدُهم مِن الأذَى، وأرضَاهُم في الناسِ أفشَاهُم معروفًا، وأقوَاهُم أحسنَهُم معُونَةً، وأشجَعهم أشدَّهم على الشَّيطانِ، وأفلجُهم بحجَّةٍ أغلبُهُم للشَّهوةِ والحرْص، وآخَذُهم بالرأيِ أَتركُهُم للهوى، وأحقُهُم بالمَودة أشدُهُم لِنفسهِ حُباً، وأجوَدُهُم أصوَبُهُم بالعَطية موَضعاً، وأطْوَلُهمَ راحةً أَحسَنُهُم للأمُورِ احتِمالاً، وأقلُهُم دهَشاً أَرحَبُهُم ذِرَاعاً، وأَوْسعُهُم غِنىً أقنَعُهم بِما أوتِيَ، وأَخفضُهُم عَيشًا أبعَدُهُم من الإفراطِ، وأظهَرهُم جمالاً أظهُرهُم حصَافةً، وآمنهم في النَّاس أكَلُّهُمْ نَاباً ومخْلَباً، وأثْبتُهُم شَهادةً عَليهمْ أَنْطقُهُم عنهُم، وأعدلهُم فِيهِم أدومهم مسالمةً لهم، وأحقهم بالِنعمِ أشكَرُهُم لِمَا أوتِيَ مِنهَا.

* * *

أفْضَلُ مَا يُورثُ الآباءُ الأبْنَاءَ، الثنَاءُ الحَسَنُ والأدَبُ النافِعُ والإخْوانُ الصَّالِحونَ.

* * *

فَصلُ ما بيْنَ الدّينِ والرأْي، أن الدّينَ يُسلَمُ بالإيمَانِ، وأنَّ الرأْيَ يَثبُتُ بالخُصُومةِ، فَمَن جَعَل الدِّينَ خُصُومةً، فَقد جعَلَ الدِّينَ رأياً، ومَن

جَعَل الرأيَ دِيناً فَقَد صَارَ شَارِعاً، ومَن كانَ هُوَ يَشرعُ لنَفسهِ الدينَ فَلا دِين لهُ.

قَد يَشْتبهُ الدِّينُ والرَّأيُ في أمَاكِنَ، لَولا تشَابُههما لم يَحتاجا إلى الفصَل.

* * *

العُجب آفةُ العقلِ، واللَّجاجةُ قُعودُ الهوَى، والبُخل لقاحُ الحرصِ، والمراءُ فَسادُ اللسانِ، والحَميةُ سبَبُ الجهَلِ، والأَنفُ توأَمُ السَّفهِ، والمُنَافَسةُ أختُ العَداوةِ.

* * *

إذَا هَمَمتَ بخيرٍ فَبادِرْ هَواكَ، لا يَغْلِبكَ، وإذا هَمَمْتَ بِشَرٍ فَسَوف هَواكَ لَعلَّكَ تَظْفرُ. فإن ما مَضَى مِن الأيَّامِ والسَّاعاتِ على ذَلِك هُو الغُنْمُ.

لا يَمنَعنك صِغرُ شَأن امرئ مِنَ اجتِناءِ ما رِأيتَ مِنْ رَأيِه صَوَاباً والاصِطِفاءِ لِما رأيتَ مِن أخْلاقِهِ كَريماً، فإنَّ الُّلؤلُؤةَ الفَائِقَة لا تُهانُ لهَوانِ غائِصِها الَّذي استِخرَجَها.

* * *

مِن أبْوابِ التَّوفقِ والتَّوفيقِ في التَّعلُّمِ أن يَكُون وجْهُ الرَّجلِ ا لذي يَتوَجهُ فيه من العِلمِ والأدَب فيما يُوافقُ طاعةً ويكونَ لَه عَندهُ مَحملٌ

وقَبُولٌ. فلا يَذهبُ عَناؤهُ في غَير غَناءٍ، ولا تَفنَى أيّامهُ في غَير دَركٍ، ولا يستَفرغُ نَصِيبهُ فِيما لا يَنجعُ فِيهِ، ولا يَكُونُ كَرَجُلٍ أَرادَ أنْ يُعمر أرضاً تهَمَةً[1] فَغَرسَها جَوزاً ولَوزاً، وأَرضاً جَلساً[2] فَغَرسهَا نَخلاً ومَوزاً.

* * *

العلمُ زينٌ لصاحِبهِ في الرَّخاء، ومَنجاةٌ لهُ في الشِدَّة.

* * *

بالأدَب تعمرُ القلُوبُ، وبالعلمِ تستَحكمُ الأحلامُ.

* * *

العقلُ الذَّاتي غَيرُ الصَّنيعِ، كالأرْضِ الَّطيبةِ غير الخَرابِ.

* * *

مما يَدُل على مَعرفةِ اللهِ وسَبَب الإيمانِ أن يُوكل بالغَيبِ لكُل ظَاهرٍ من الدنيَا، (صَغيرٍ أو كَبيرٍ) عَيناً، فهو يُصرفهُ ويُحركهُ. فَمن كان مُعتبراً بالجَليل من ذَلِك، فَليَنظرْ إلى السَّماء فَسَيعلمُ أن لها رَباً يُجرِي فَلَكها، ويُدبرُ أمرَها، ومن اعتَبرَ بالصَّغير، فليَنظُر إلى حبَّةِ الخَردلِ فسَيعرفُ أنَّ لها مُدبراً ينبِتُها ويُزكِيها ويُقدِرُ لها أقوَاتها مِن الأرض والماءِ، يُوقتُ لها زمَانَ نبَاتها وزمانَ تَهَشُّمها،

([1]) الأرض المتصوبة إلى البحر.

([2]) الجلس: الأرض الغليظة، وما ارتفع عن القور.

وأمر النُبوةِ والأحلاَمِ وما يَحدثُ في أنفُسِ النَّاسِ من حيثُ لا يعلمُونَ، ثم يظهرُ منهم بالقوْلِ والفِعلِ، ثمَّ اجتمَاعِ العُلماءِ والجُهالِ والمُهتدين والضُّلالِ على ذِكر اللهِ وتعْظِيمه، واجتِماعِ مَن شكَّ في اللهِ وكذَّب بهِ على الإقرارِ بأنهُم أنشِئُوا حدِيثاً، ومَعرفَتهم أنَّهم لم يُحدِثُوا أنفُسَهُم.

فكل ذلِك يهدِي إلى اللهِ ويَدُل على الَّذي كانَت منهُ هذِه الأمُورُ، مع ما يَزيدُ ذلك يَقيناً عندَ المُؤمنِينَ بأنّ الله حَقٌ كبيرٌ ولا يقدِر أحَدٌ على أن يُوقنَ أنَّه بالبَاطلِ.

* * *

إن لِلسُّلطانِ المقُسِطِ حَقاً لا يصلُحُ بِخاصةٍ ولاغامةٍ أمرٌ إلا بإرادَتهِ، فَذُو اللُّب حقيقٌ أن يخُلِص لهمُ النَصيحة، ويَبذُل لهَمُ الطاعَة، ويَكتُم سرَّهُم، ويُزَيِنَ سِيرَتهُم، ويَذُب بلِسَانِه ويَدِه عنهُم، ويَتوخَّى مرضاتَهُم، ويكون مِن أَمرهِ المُؤَاتاهُ لهم والإيثارُ لأهوَائِهم ورأيِهم عَلى هَواهُ ورَأيهِ، ويُقَدّرَ الأمُور عَلى مُوافَقتِهم وإن كانَ ذلك له مُخالفاً، وأن يُكون منهُ الجِدُّ في المُخَالَفة لِمَن جَانبهُم وجَهِل حَقَّهُم، ولا يوَاصِلَ مِن الناسِ إلا مَن لا تُباعِدُ مواصَلتهُ إيَّاهُ مِنهُم، ولا تَحملهُ عداوةُ أَحَدٍ لهُ ولا إضْرارٌ بِه على الاضطِغَانِ[1] عَليهم، ولا مُؤاتاهُ أحدٍ على الاستِخْفافِ بشيءٍ من أمُورهم والانتِقاص لشيءٍ مِن حَقِهم، ولا يكتُمهم شيئاً من نَصِيحتِهم، ولا يتثَاقَل عن شيء من طاعتِهِمْ، ولا يَبْطَر إذا أكرَموهُ، ولا يَجتَرئَ عليهم إذا

(1) أي حمل الضغينة وهي الحقد.

قرَّبُوه، ولا يَطغَى إذا سلَّطوهُ، ولا يُلحِف إذا سأَلهَم، ولا يُدخل عليهمُ المَؤونَة، ولا يَستَثْقِل ما حَملوهُ، ولاَ يعتَزَّ عليهم إذا رضوا عَنهُ، ولا يَتَغيرَ لهم إذا سخِطوا عليه، وأن يَحمَدهم على ما أصابَ من خيرٍ منهم أو من غيرهم فإنهُ لا يقدِر أحَدٌ على أن يُصِيبهُ بِخيرٍ إلا بِدِفاعِ الله عَنهُ بِهم.

* * *

ممَّا يدُلُ على عِلمِ العَالِمِ مَعرِفتهُ ما يُدركُ مِن الأمُورِ وإمساكُهُ عَما لا يُدركُ وتَزيِينُهُ نَفسَهُ بالمَكارِمِ، وظهُورُ عِلمهِ للناسِ من غير أن يَظهَر منهُ فَخرٌ ولا عُجبٌ، ومَعرفتُهُ زَمانهُ الذي هُو فيه، وبَصَرهُ بالناسِ، وأخذُهُ بالقِسطِ، وإرشادُهُ المستَرشَد، وحُسن مُخالَقتهِ خُلطاءهُ، وتَسويتُهُ بين قَلبهِ ولَسانهِ، وتحَرّيهِ العَدل في كل أمرٍ، ورَحبُ ذَرعِه فيما نَابهُ، واحتِجاجهُ بالحُجَجِ فيما عمِل، وحُسنُ تَبصيرهِ.

من أرَادَ أن يَبصُر شَيئاً من عِلمِ الآخِرَة، فبالعلم الذي يَعرفُ بهِ ذَلِك، ومَن أرَاد أن يَبصُر شَيئاً مِن أمرِ الدُّنيا فبِالأشْياء التي هي تدُلُّ عَلَيه.

* * *

لِيكنِ المرءُ سَؤولاً، ولَيكُن فَصولاً بين الحَقِ والبَاطِل، وليكُن صَدُوقاً لِيؤمَّن على ما قالَ، وليَكُن ذا عهدٍ لِيُوفى لهُ بعَهده، وليكُن شَكوراً لِيستَوجب الزيادَة، وليَكن جوَاداً ليَكونَ للْخَير أهْلاً، وليكُن رحِيماً بالمَضرُورين لِئلا يُبتلى بالضُّرِّ، وليكن ودوداً لِئلاَّ يكون مَعدِناً لأخْلاقِ

الشيطانِ، وليكُن حافِظًا لِلِسانِه مُقبِلًا على شأنِه لئِلاَّ يؤخَذَ بما لَم يَجترِم وليكُن مُتواضِعاً لِيُفرحَ لهُ بالخَيرِ ولا يُحسَدَ عليه، وليكُن قَنِعاً لِتَقَرَّ عَينُه بما أوتيَ، وليُسَرَّ للناسِ بالخَيرِ لِئلا يؤذِيَه الحسَدُ، وليكُن حَذِراً لِئلا تَطُولَ مَخافتُهُ، ولا يَكُونَنَّ حقَوداً لِئلاَّ يضُرّ بنفسِهِ إضرَاراً بَاقِياً، ولَيكُن ذَا حَياءٍ لِئلاَّ يُستذَم إلى العُلماءِ. فإنَّ مَخَافَة العالمِ مَذمَّة العُلماء أَشَدُّ من مُخَافَته عُقوبَةَ السُّلطانِ.

* * *

حَياةُ الشَّيطَان تَرك العِلمِ، ورُوحُهُ وجَسدُهُ الجهلُ، ومَعدنُهُ في أَهلِ الحِقدِ والقَساوَةِ، ومَثوَاهُ في أَهلِ الغَضَبِ، وعَيشُهُ في المُصارَمةِ[1]، ورجَاؤهُ في الإِصرارِ على الذنُوبِ.

* * *

وقَالَ: لا يَنبغِي للمَرءِ أن يَعْتدَّ بِعلمِه ورَأيِه ما لم يُذاكرِهُ ذوُو الأَلبابِ ولم يجَامِعُوه عليه. فإِنَّهُ لا يُستكملُ عِلمُ الأَشياءِ بالعَقلِ الفَرد.

* * *

أعدَلُ السِير أن تَقيسَ الناسَ بنَفسِكَ، فَلا تَأْتي إِليهِم إلاَّ ما تَرْضَى أن يُؤتى إِليك.

---

(1) المقاطعة والتنافر.

وأنفعُ العَقلِ أن تُحسنَ الْمَعيشةَ فيما أوتِيتَ من خيرٍ، وأن لا تَكترِثَ من الشَّر بما لم يُصِبك.

* * *

ومِنَ العِلمِ أن تَعلَم أنَّك لا تَعلَمُ بِما لا تَعلَمُ.

* * *

ومِن أحسَنِ ذوِي العُقولِ عَقلاً مَن أحسَنَ تقدِيرَ أمرِ مَعَاشِه ومَعَادِهِ تَقدِيراً لا يُفسِد عليه واحِداً منهُما نَفادُ الآخَر، فإِنْ أعياهُ ذلك رفَضَ الأدنى وأثَر عليهِ الأعْظم.

* * *

وقَال: المُؤمنُ بِشَيءٍ من الأشياءِ، وإِن كان سِحراً، خَيرٌ مِمَّن لا يُؤمنُ بِشيءٍ ولا يَرجو مَعَاداً.

* * *

لا تُؤدّي التَّوبةُ أحَداً إلى النَّار، ولا الإِصرَارُ عَلى الذنُوبِ أحداً إلى الجنَّةِ.

* * *

من أفضَلِ البِر ثلاثُ خِصالٍ: الّصِدقُ في الغَضبِ، والجُودُ في العُسرةِ، والعَفوُ عِندَ القُدرةِ.

* * *

رأسُ الذُنوبِ الكذِبُ: هو يؤسِسُها وهوَ يَتَفقدُها ويُثبتُها. وَيَتلوَّنُ ثَلاثَة ألوَانٍ: بالأُمنيَّةِ، والجُحُودِ، والجَدلِ. يبدُو لصاحِبهِ بالأُمنِيَّة الكاذِبةِ فِيما يُزينُ لهُ من الشَّهواتِ فيشجعهُ عليها بأنَّ ذلك سيخفى. فإذا ظَهر عَليه قابَلهُ بالجُحودِ والمُكابَرةِ، فإن أعيَاهُ ذلك خَتَم بالجدلِ، فَخَاصَم عن الباطِلِ ووضَع لهُ الحُجَجَ، والتَمَس بهِ التَّثبُّت وكابَر بهِ الحَقَّ حتَّى يكُون مُسارِعاً للضَّلاَلةِ ومُكابِراً بالفَواحشِ.

* * *

لا يثبتُ دِينُ المرءِ على حَالةٍ واحِدةٍ أبَداً، ولَكنهُ لا يَزالُ إمَّا زَائداً وإمَّا ناقِصاً.

* * *

مِن عَلامَاتِ الَّلئيمِ المُخادعِ أن يَكُون حَسَن القوْلِ، سيءَ الفِعلِ، بَعيدَ الغضَبِ، قَريبَ الحَسدِ، حمُولاً للفُحشِ، مُجازِياً بالحِقدِ، مُتكلِفاً لِلجودِ، صَغيرَ الخَطرِ، مُتوسّعاً فيما لَيسَ لهُ، ضَيقاً فِيما يَملِكُ.

* * *

وكانَ يُقالُ: إذا تَخالجَتكَ الأمُور فاشتَغِل بأعظَمِها خَطراً، فإنْ لم تَستَبِن ذّلِك فأَرجَاها دَركاً، فإن اشتبَه ذَلِك، فأجدّرُها أن لا يَكُونَ لهُ مَرجُوعٌ حَتَّى تُوَلّي فُرصتُهُ.

* * *

وكان يُقالُ: الرِجالُ أربَعةٌ: إثنانِ تَختبِرُ ما عِندهُما بالتَّجربةِ، واثنَانِ قَد كُفِيت تجربَتهُما.

فأمَّا الّلذانِ تَحتاجُ إلىَ تجرِبتهِما، فإنَّ أحَدهُما برٌّ كاَن مع أبرارٍ، والآخَر فاجِرٌ كان مع فُجّارٍ، فإنك لا تدري لعَل البرَّ منهما إذا خَالط الفُجَّارَ أن يتبدَّل فَيصيرَ فاجراً، ولعلَّ الفاجِر منهُما إذا خَالط الأبرارَ أن يَتبدَّل بَراً، فَيتبدَّلُ البَر فاجراً، والفاجِرُ بَراً.

وأمَّا الّلذانِ قد كُفيتَ تَجربتهُما وتَبيَّن لَك ضَوءُ أمرِهِما، فإنَّ أحدَهُما فاجِرٌ كان في أبرَارٍ، والآخَرَ بَرٌّ كان في فُجَّارٍ.

* * *

حقٌّ على العَاقِل أن يَتَّخذَ مِرآتينِ، فينظُر مِن إحدَاهُما فيَ مساوِئِ نَفسِه فَيَتصاغَر بِها وُيصلِحَ ما استطَاع مِنها، وينظر من الأُخرى في مَحاسن النَّاسِ، فيُحليهُم بها ويَأخُذَ ما استطَاعَ مِنهَا.

* * *

إحذَر خُصُومةَ الأهلِ والوَلدِ والصَّدِيقِ والضَّعيفِ، واحتجَّ عليهِم بالحُججِ.

* * *

لا يُوقعنك بَلاءٌ خَلصتَ مِنهُ في آخَرَ لَعلَّك لا تخلُصُ منهُ.

* * *

أَلورِعُ لا يَخدعُ، والأريبُ لا يُخدعُ.

ومِن وَرعِ الرَّجُلِ أن لا يقُولَ ما لا يَعلمُ، ومِن الإِربِ[1] أن يَتَثبَّت فِيما يَعلمُ.

* * *

وكان يُقالُ: عَمَلُ الرَّجُلِ فيما يَعلمُ أنَّه خَطأٌ هَوى، (والهَوَى آفةُ العَفافِ). وتركُهُ العَمَل بِماَ يعلَمُ أَنَّهُ صَوابٌ تهَاوُنٌ، (والتَّهاوُنُ آفةُ الدِينِ). وإقدامُهُ على ما لا يَدري أصَوَابٌ هُو أمْ خَطأ جِماحٌ[2]، (والجِماحُ آفةُ العقلِ).

* * *

([1]) الإرب (بكسر الألف وفتحها): الدهاء والبصر بالأمور. وهو من العقل.

([2]) التمادي في الغواية.

وكانَ يُقالُ: وَقّرْ مَن فَوقَكَ، ولِن لِمن دُونكَ، وأَحسِن مؤاتاةُ [1] أكفَائِك. وليَكُن آثرَ ذَلِك عِندك مُؤاتاةُ الإِخوانِ، فإنَّ ذَلِك هُو الذي يَشهدُ لَك بأَنَّ إجلاَلكَ مَن فَوقَك ليسَ بِخُضُوعٍ مِنكَ لهُم، وأنَّ لِينكَ لِمَن دُونَك لَيس لالتِماسِ خدْمَتِهِم.

* * *

خَمسةٌ غيرُ مُغتَبِطِينَ في خمَسة أشياءَ، يَتَنَدَّمُونَ عَليها، الواهنُ المُفرطُ إذا فاتهُ العَملُ، والمُنقَطِعُ من إخوَانِهِ وصَديقِهِ إذا نابَته النَّوائبُ، والمُستمكِنُ مِنهُ عَدُوُّهُ لِسُوءِ رَأيِه إذا تَذَكَّر عَجزَهُ، والمُفارِقُ لِلزوجَةِ الصَّالِحة إذا ابْتُلِيَ بالطَّالحةِ، والجَريءُ على الذُّنُوبِ إذا حَضَرهُ المَوْتُ.

* * *

أُمورٌ لا تَصلحُ إلاَّ بِقرائِها:

لا ينَفعُ العَقلُ بغير وَرعٍ، ولا الحِفظُ بغيرِ عَقلٍ، ولا شدَّةُ البَطشِ بغَير شدَّة القَلب، ولا الجَمَالُ بَغيرِ حَلاوةٍ، ولا الحَسَبُ بِغَيرِ أدبٍ، ولا السُّرورُ بِغَير أمنٍ، ولا الغِنى بغَير جُودٍ، ولا المُرُوءةُ بغير توَاضُعٍ، ولا الخَفضُ بغير كِفايةٍ، ولا الاجتهادُ بِغَير تَوفِيقٍ.

* * *

أُمورٌهُنَّ تَبعُ لأُمور:

([1]) المؤاتاة: الموافقة وحسن المطاوعة.

فالمروءاتُ كلها تبعٌ للعقلِ، والرأي تبعٌ للتجربةِ، والغبطةُ تبعٌ لحسنِ الثناء، والسرورُ تبعٌ للأمنِ، والقرابةُ تبع للمودةِ، والعملُ تبعٌ للقدرِ، والجدةُ تبعٌ للإنفاقِ [١]

* * *

أصْلُ العَقلِ التَّثبُّتُ، وثَمَرتهُ السلامَةُ، وأَصلُ الوَرعِ القناعةُ، وثَمرتهُ الظَّفرُ، وأصلُ التَّوفيقِ العَملُ، وثَمرتهُ النُّجحُ.

* * *

لا يُذكر الفَاجرُ في العُقلاءِ، ولا الكَذوبُ في الأعِفّاءِ، ولا الخَذولُ[٢] في الكُرماءِ، ولا الكَفورُ[٣] بِشَيءٍ مِن الخَيرِ.

* * *

لا تُؤاخِين خَباً[٤]، ولا تَستنصِرَنَّ عاجِزاً، ولا تَستعينَنّ كَسِلاً[٥].

* * *

ومِن أعْظَمِ مَا يُرَوحُ به المْرءُ نَفسَهُ أن لا يَجرِي لِمَا يَهوى وليس

---

(١) في لحديث الشريف: أنفق أنفق عليك.

(٢) تارك الإعانة والنصرة:

(٣) الذي يجحد النعمة ويسترها.

(٤) الخب "بفتح الخاء وكسرها": الرجل الخداع الخبيث.

(٥) الكسل والكسلان مؤنثة كسلة وكسلى وكسلانة وكسول ومكسال. والكسل التثاقل عن الشيء والفتور فيه.

كائناً، إلا[1] لِما لا يَهْوى وهُوَ لا مَحَالة كائنٌ.

إغْتَنِم مِن الخَير ما تَعَجَّلتَ، ومِن الأهْواءِ ما سَوَّفتَ، ومِن النَّصب ما عادَ عليكَ. ولا تَفرَح بالبَطالةِ، ولا تَجبُن عن العَملِ.

* * *

مَن استَعظَم مِن الدُّنيا شَيئاً فَبَطِرَ، واسْتَصغرَ مِن الدُّنيا شَيئاً فَتَهاوَن، واحْتقَر مِن الإثمِ شَيئاً فاجْتَرأَ عَليه، واغتَّر بَعدوٍ وإن قَلَّ فلَم يَحذرهُ، فَذلِك مِن ضَياعِ العَقلِ.

* * *

لا يَستخِفُ ذو العَقلِ بأحَدٍ.

وأحَقُّ من لم يُستخَفَّ به ثلاثةٌ: الأتقِياءُ والوُلاةُ والإخوَانُ، فإنَّهُ من استَخف بالأتقِياءِ أهلَكَ دِينهُ، ومن استَخَف بِالوُلاةِ، أهلَكَ دنياهُ، ومن استَخَفَّ بالإِخوانِ أفسَد مُرُوءتهُ.

* * *

مَن حَاوَل الأمُورَ احتَاجَ فِيها إلى سِتّ: العِلمِ، والتَّوفيق، والفُرصةِ، والأعْوَانِ، والأدَبِ، والاجتِهادِ.

([1]) هكذا في الأصل. ولعل الصواب: ولا يهوى.

وهُنَّ أزوَاجٌ:

فالرَّأيُ والأدَبُ زوجٌ. لا يَكملُ الرأيُ بِغيرِ الأدَبِ، ولا يكملُ الأدَبُ إلا بالرَّأي.

والأعوَانُ والفُرصةُ زَوجٌ لا يَنفعُ الأعْوَانُ إلا عِند الفُرصةِ، ولا تَتمُ الفُرصةُ إلا بِحضورِ الأعْوانِ.

والتَّوفيقُ والاجِتهادُ زَوجٌ، فالاجتِهادُ سَببُ التَّوفِيقِ، وبالتَّوفيقِ يَنجحُ الاجتِهادُ.

* * *

يَسلمُ العاقِلُ مِن عِظامِ الذنُوبِ والعُيوبِ بالقَناعةِ ومُحاسبةِ النَفسِ.

* * *

لا تَجدُ العَاقِلَ يُحدثُ من يَخافُ تكذِيبهُ، ولا يَسألُ مَن يَخافُ منعهُ، ولا يَعِدُ بما لا يجِدُ إنجازهُ، ولا يَرجو ما يُعنَّفُ برَجائهِ، ولا يَقدُمُ على مَن يَخافُ العَجزَ عَنهُ.

وهُو يُسخّي[1] بنفسهِ عَمَّا يُغبطُ بهِ القَوَّالُون خُروجاً من عَيبِ

---

(1) سخى نفسه وبنفسه يسخى أي يترك الأمر ولم تنازعه نفسه فيه وهو قريب من قولهم فلان يربأ بنفسه ويترفع بها.

لتَّكذيبِ، ويَسخي بِنفسِه عما يَنالُ السَّائلون[1] سَلامةً من مَذلةِ المسألةِ، ويُسخِي بِنفسهِ عن مَحمدةِ المواَعِيد بَراءةُ من مَذمةِ الخُلفِ، ويُسَخي بنَفسهِ عن فَرحِ الرَّجاءِ خَوفَ الإكداءِ[2]، وَيسَخّيهِ عن مَراتبِ المُقدِمينَ ما يَرَى من فَضائحِ المُقَصِرين.

* * *

لا عقَلَ لِمن أغفَلهُ عَن آخِرتهِ ما يَجدُ من لَذةِ دُنياهُ، ولَيس مِن العَقلِ أن يحرِمهُ حظَّهُ مِن الدُّنيا بَصرهُ بِزَوالِها.

* * *

حَازَ الخَيرَ رَجُلانِ: سَعِيدٌ ومَرجَو.

فَالسَّعيدُ الفَالِجُ[3]، والمَرجُوُّ مَن لم يَخصَم [4].

والفَالِجُ الصَّالحُ ما دَام في قَيدِ الحَياةِ وتَعرَّضِ الفِتنِ في مُخاصَمةٍ الخُصماءِ مِن الأهْواءِ والأعدَاءِ.

---

(1) أي عما يصيبه السائلون من مذلة المسألة.

(2) الإكداء هنا بمعنى الخيبة. ومنه قول عائشة في وصف أيها الصديق رضي الله عنهما: "سبق إذ ونيم، ونجح إذا أكدتم" أي ظفر إذ خبتم ولم تظفروا. وأصله من حافر البئر ينتهي إلى كدية- صخرة صماء لا يعمل فيها الفأس- فلا يمكنه الحفر فيتركه ويرجع خائبًا في عمله الذي كان يرجوه.

(3) أي الفائز الغالب. وهو أيضًا الذي يعلو أصحابه ويفوتهم.

(4) أي من لم يكن شديد الخصومة ولا يخاصم.

السعيدُ يُرغبهُ اللهُ في الآخرةِ حتى يقُول: لا شيء غيرها، فإذا هضمَ دُنياهُ وزَهدَ فيها لآخرتِهِ، لم يَحرمهُ الله بذلكَ نصيبهُ من الدُّنيا ولم يُنقصهُ مِن سُرورهِ فيها.

والشَّقُّي يُرغبهُ الشيطانُ في الدُّنيا حَتى يَقول: لا شيء غيرها. فيجعلُ الله له النَّغِيصَ[1] في الدُّنيا التي آثَر مع الخِزيِ الذي يَلقَى بَعدها.

* * *

الرِجالُ أَربعةٌ: جَوادٌ، وبَخيلٌ، ومُسرفٌ، ومُقتَصِدٌ. فالجَوادُ الذي يُوجهُ نصيبَ آخِرتهِ ونَصيبَ دُنياهُ جَميعاً في أمرِ آخرتهِ.

والبَخيلُ الذي يُخطِئُ واحدةً منهُما نَصِيبها.

* * *

والمسرِفُ الذي يجمعُهمَا لِدنُياهُ.

والمُقتصِدُ الذي يُلحقُ بكل واحِدةٍ مِنهُما نَصِيبها.

أغنَى الناسِ أكثرُهُم إِحسَاناً.

قَال رَجلٌ لحَكيمٍ: مَا خَيرُ ما يُؤتَى المَرءُ؟ قَال: غَرِيزةُ عَقلٍ.

([1]) أي تكدر العيش وعدم إتمام المراد.

قَال: فإنْ لَم يُكن؟ قَال: فتَعلُّمُ عِلمٍ.

قَال: فإن حُرِمهُ؟ قال: صِدقُ الِلسانِ.

قال: فإن حُرمهُ؟ قال: سُكوتٌ طَويلٌ.

قال: فَإن حُرِمه؟ قَال: مِيتةٌ عاجِلةٌ.

* * *

من أشَد عُيوبِ الإنسانِ خَفاءَ عُيوبهُ عَلَيهِ. فإن مَن خَفي عَليه عَيبُه خَفِيت عَليه مَحَاسِنُ غَيره، ومَن خَفي عليه عيبُ نفسِهِ ومَحاسنُ غيرهِ فلن يُقلعَ عن عَيبهِ الذي لا يَعرفُ ولن يَنَال مَحاسنَ غيرهِ التي لا يُبصِرُ أبَداً.

* * *

خُمولُ الذِكرِ أجملُ من الذِكرِ الذَّمِيم.

لا يُوجَدُ الفَخورُ مَحموداً، ولا الغضُوبُ مَسروراً، ولا الحُرُّ حَريصاً، ولا الكريمُ حَسُوداً، ولا الشَّرهُ غَنياً، ولا المَلولُ ذا إِخوانٍ.

* * *

خِصالٌ يُسرُ بها الجَاهلُ، كُلها كائِنٌ عَليهِ وبَالاً.

مِنها، أن يَفخَر مِن العِلمِ والمُروءةِ بما لَيس عِندهُ ومِنها، أن يرَى

بالأَخيَار مِن الاسْتهانةِ والجَفوةِ ما يُشمِتهُ بهم.

ومِنها، أن يُناقِل[1] عالماً وديعاً مُنصفاً لهُ في القولِ فَيَشتدَّ صَوتُ ذلكَ الجَاهلِ عَليه ثم يُفلِجُهُ[2] نُظَراؤهُ مِن الجُهَّالِ حَولهُ بِشدَّةٍ الصَّوتِ وكَثرةِ الضَّحِكِ.

وَمنها، أن تَفرُطَ مِنهُ الكلِمةُ أو الفَعْلة المُعجبةُ للقومِ فيُذكَر بِها.

ومنها، أن يكُونَ مَجلسُهُ في المَحفلِ وعِند السُّلطانِ فَوق مَجالسِ أهلِ الفَضلِ عَليهِ.

* * *

من الدَّليلِ على سَخَافةِ المُتكلِمِ أن يكون ما يُرى من ضَحكه ليس على حَسبِ ما عِندهُ من القَولِ، أو الرَّجلُ يكلّمُ صاحبهُ فيُجاذبهُ الكلام ليكونَ هو المُتكلِم، أو يَتمنَّى أن يكُون صاحبهُ قد فَرغَ وأنصَت لهُ فإذا نَصتَ[3] لهُ لم يحسنِ الكلامَ.

فضلُ[4] العلمِ في غير الدينِ مَهلكةٌ، وكَثرةُ الأدبِ في غيرِ رِضوانِ الله ومَنفعةِ الأخبارِ قَائدٌ إلى النَّارِ.

---

(1) المناقلة المحادثة والنقل "بفتحتين" مراجعة الكلام في صخب. وهو المناقلة أيضًا.

(2) ينصره.

(3) نصت وأنصت: سكت للاستماع.

(4) أي زيادته.

والحفظُ الذَّاكي الوَاعي لغيرِ العِلمِ النَّافعِ مُضرٌ بالعملِ الصالحِ، والعقلُ غيرُ الوَازعِ عن الذُّنوبِ خازنُ الشَّيطانِ.

* * *

لا يُؤمِننكَ شرَّ الجاهلِ قرابةٌ ولا جِوارٌ ولا إلفٌ.

فإن أخوَف ما يكونُ الإنسانُ لِحريقِ النَّارِ أقرَبُ ما يكونُ منها، وكذلِك الجاهِلُ إن جَاوَرك أنصَبكَ، وإن ناسَبكَ جَنَى عليك، وإن ألفَكَ حمَلَ عليك ما لا تُطيقُ، وإن عاشَرَك آذَاك وأخَافَك، مع أنَّهُ عند الجُوعِ سَبعٌ ضارٍ، وعند الشِبعِ ملكٌ فَظٌّ، وعِند المُوافقةِ في الدينِ قَائدٌ إلى جَهَنمِ.

فأنتَ بالهَربِ مِنه أحقُّ مِنكَ بالهَربِ من سُم الأسَاوِدِ[١] والحريقِ المخوفِ والدينِ الفادحِ والدَّاء العَياءِ.

* * *

وكان يُقالُ: قَارِب عدُوكَ بَعض المُقاربةِ، تَنَل حاجَتكَ، ولا تُقاربهُ كل المُقاربةِ، فَيَجترِئَ عليك عَدُوُّك وتَذِل نفسُك ويَرغبَ عنك ناصِرُكَ.

ومثلُ ذلك مَثل العُودِ المَنصُوبِ في الشمسِ، إن أمَلتهُ قليلاً زادَ ظلهُ، وإن جاوزتهُ الحدَّ في إمالتهِ، نَقَص الظِل.

---

(١) الثعابين العظيمة.

الحازمُ لا يأمَنُ عَدوهُ على حالٍ: إن كان بَعيداً لم يأمن مُغاوَرَته[1]، وإن كان قريباً لم يأمَن مُواثَبتهُ، وإن كان مُنكشِفاً لم يأمَن استطرادهُ، وكَمينهُ، وإن رَآهُ وَحيداً لم يأمَن مَكرهُ.

* * *

المَلكُ الحَازِم يَزدادُ بِرأيِ الوُزَراء الحَزمةِ كما يَزدادُ البَحرُ بِموادهِ من الأنهارِ[2].

الظَّفرُ بالحزمِ، والحَزمُ بِإجالةِ الرَأي؛ والرأيُ بِتَحصينِ الأسرارِ.

* * *

إن المُستشِير وإن كانَ أفضلَ مِن المُستشَار رَأياً، فهو يَزدادُ بِرأيِه رأياً، كما تَزدَادُ النارُ بالوَدكِ[3] ضَوءاً.

على المُستشَارِ مُوافَقةُ المُستشِير على صَوابِ ما يَرى، والرِفقُ به في تَبصِير خَطأ إن أتَى بهِ، وتَقليبُ الرأيِ فيما شَكا فيه، حتى تَستقِيم لهما مُشاوَرتُهما.

* * *

لا يَطمعنَ ذُو الكِبر في حُسنِ الثَّناء، ولا الخَبُّ في كَثرةِ الصَّدِيق،

---

(1) من غاوره أي شن الغيرة عليه.

(2) الدسم والدهن والشحم والأدم وما أشبه ذلك. "المواد الشحمية".

(3) الطلبة "بفتح الطاء وكسر اللام": ما طلبته من شيء. وهي أيضًا الحاجة.

ولا الَّسيء الأدَبِ في الشَّرفِ، ولا الشَّحيحُ في المَحمدةِ، ولا الحرِيصُ في الإخوانِ، ولا الملكُ المعُجبُ بثباتِ المُلكِ.

* * *

صَرعةُ الِلينِ أشَدُّ استِئصالاً من صَرعةِ المُكابَرة.

* * *

أربَعةُ أشياءَ لا يُستقل مِنها قَليلٌ: النارُ، والمرضُ، والعَدُو، والدينُ.

* * *

أحَقُّ النَّاس بالتَّوقِير المَلكُ الحَليمُ، العالمُ بالأمُورِ وفُرصِ الأعمالِ ومَواضعِ الشدَّةِ واللِّين والغَضبِ والرِضاءِ والمُعالجةِ والأنَاة، النَّاظرُ في أَمرِ يَومه وغَدهِ وعَواقبِ أعْمَالهِ.

* * *

السَّببُ الذي يُندركُ به العَاجزُ حَاجَتهُ هَو الذي يَحوُلُ بينّ الحازمِ وبين طلَبتهِ.

إن آهلَ العقلِ والكَرمِ يَبتغُونَ إلى كُل معرُوفٍ وصُلَةً وسَبيلاً.

والمَوَدةُ بين الأَخيارِ سريعٌ اتِصالهُا بَطئٌ الانكِسارِ هَينُ الإِصلاحِ.

والمَودة بَين الأشْرارِ سَريعٌ انقِطاعُها بَطئٌ اتِصالهُا، كالكوزِ مِن الفَخَّار يكسِرُهُ أدنىَ عَبثٍ ثُم لا وَصل له أبَداً.

والكرِيمُ يَمنحُ الرَّجلَ مَودَّتهُ عَن لُقيةٍ واحِدةٍ أو مَعرِفةِ يومٍ. واللئِيمُ لا يَصلُ أحداً إلا عَن رَغبةٍ أو رَهبةٍ.

فإِنَّ أهلَ الدُّنيا يَتَعاطَونَ فِيما بَينهُم أمْرَين ويتَواطَئونَ عَليهما: ذَاتُ النفسِ، وذات اليَدِ.

فأما المتبادلون ذات اليد فهُمُ المتعاونون المستمتعونَ الذينَ يلتمسُ بعضهمُ الانتفاعَ ببعضٍ مناجزةً ومُكايلةً.

* * *

ما التَّبعُ والأَعوانُ والصَّديقُ والحَشَمُ إلا لِلمالِ. ولا يُظهِرُ المُرُوءةَ إلاَّ المَالُ. ولا الرَّأيُ ولا القُوَّةُ إلا بِالمالِ.

* * *

ومَنَ لا إِخوَانَ لَهُ فَلا أَهلَ لهُ، ومَن لا أَولادَ لَهُ فَلا ذِكرَ لهُ، ومَن لا عَقلَ لهُ فَلا دُنيا لَهُ ولا آخِرةَ، ومَن لا مَالَ لهُ فَلا شَيء لَهُ.

* * *

والفَقرُ دَاعيةٌ إلىَ صاحبهِ مَقتَ النَّاسِ، وهوَ مَسلبةٌ لِلعقلِ والمُروءةِ، مذهَبةٌ لِلعلمِ والأَدبِ، ومَعدِنٌ لِلتُّهمةِ، ومَجمعةٌ لِلبَلايا.

ومَن نَزَل به الفَقرُ والفَاقةُ لم يَجد بُدّاً من تركِ الحَياءِ، ومَن ذَهَب حيَاؤهُ ذَهبَ سرُورهُ، ومَن ذَهبَ سُرورهُ مقُتَ، ومَن مقُتَ أو ذِي، ومَن

أوذِيَ حزنَ، ومَن حَزِنَ فَقد ذَهبَ عَقلِهُ واستُنكِرَ حِفظُهُ وفَهمهُ.

ومَن أصِيبَ في عَقلِه وفَهمِهِ وحِفظهِ كان أكثَرُ قَولِهِ وعَملهِ فِيما يَكُون عَليه لا لهُ.

فإِذا افتَقَر الرَّجلُ اتَّهمهُ منَ كان له مُؤتمِناً، وأسَاء بهِ الظَّن مَن كان يَظنُّ بهِ حسناً، فإذا أَذنَب غيرهُ ظَنوهُ وكانَ للتُّهمةِ وسُوء الظَّنَّ مَوضِعاً.

* * *

ولَيسَ مِن خَلةٍ هيَ لِلغني مَدحٌ إلا هِيَ لِلفقيرِ عَيبٌ، فإِن كانَ شجَاعاً سُمي أهوَج،

وإن كانَ جواداً سمي مفسداً،

وإن كان حَليماً سُمي ضَعيفاً،

وإنْ كان وَقُوراً سُمي بليدًا،

وإن كانَ لسِناً سُمي مِهذاراً،

وإن كان صَمُوتاً سُمي عَيياً.

* * *

وكان يُقالُ: مَن ابتُلِي بِمرضٍ في جَسدهِ لا يُفارقهُ، أو بِفِراق الأَحبةِ

والإخوان، أو بِالغُربةِ حَيثُ لا يَعرِفُ مَبيتاً ولا مقِيلاً ولا يَرجو إِياباً، أو بفَاقةٍ تَضطرُّهُ إلى المَسألة: فالحياةُ لهُ مَوتٌ، والمَوتُ له رَاحةٌ.

* * *

وجَدنا البَلايا في الدُّنيا إنما يَسُوقُها إلى أَهلِها الحِرصُ والشَّرهُ. ولا يَزالُ صَاحبُ الدُنيا يتقلَّبُ في بَليةٍ وتَعبٍ، لأنه لا يزالُ بِخلَّةِ الحِرصِ والشَّرهِ.

* * *

وسَمعُت العُلمَاء قَالوا: لا عقلَ كالتَّدبِير، ولا وَرَع كالكفِ، ولا حَسبَ كحُسنِ الخُلُقِ، ولا غِنى كالرِضى. وأحقٌّ ما صُبر عَليه ما لا سَبيلَ إلى تَغييرِهِ. وأفْضلُ البِر الَّرحمةُ، ورَأسُ المَودةِ الاستِرسالُ، ورأسُ العَقلِ المعرفةُ بِماَ يكونُ وما لا يَكونُ، وطِيبُ النَّفسِ حُسنُ الانصِرافِ عمَّا لا سَبيِلَ إليهِ. ولَيس مِن الدُّنيا سُرورٌ يَعدِلُ صحْبةَ الإِخوانِ، ولا فيِها غَمَّ يَعدلُ غَم فَقدِهِم.

* * *

لا يتمُّ حُسنُ الكلامِ إلى بُحسنِ العَملِ، كالَمريض الذي قد عَلمَ دَواءَ نفسِهِ، فإِذا هوَ لم يتَداَوَ به لم يغنهِ عِلمهُ.

* * *

الرَّجلُ ذو المُروءةِ قد يُكرمُ على غَير مالٍ، كالأَسدِ الذي يُهابُ وإِن كان عَقِيراً[1].

والرَّجلُ الَّذي لا مُروءةً لهُ يُهانُ وإِن كثُر مَالهُ، كالكلبِ الذي يَهونُ على النَّاسِ وإن هُو طُوِق وخُلخلَ.

ليحسنُ تعاهدكَ نفسكَ بما تكونُ به للخيرِ أهلاً. فإنك إذا فَعلتَ ذَلك، أتَاك الخيرُ يطلُبُكَ، كما يَطلُبُ الماءُ السَّيل إلى الحُدُورة.

* * *

وقِيلَ في أشياءَ لَيس لها ثَباتٌ ولا بَقَاءٌ: ظِلُّ الغمَامِ، وخَلَّة[2] الأشرارِ، وعِشقُ النِساءِ، والنَّبأ الكاذِبُ، والمالُ الكَثيرُ.

وليس يَفرحُ العَاقلُ بِالمالِ الكَثيرِ، ولا يحزِنهُ قِلتُهُ. ولَكن مالهُ عَقلُهُ وما قَدَّم من صالحِ عَملِهِ.

* * *

إنَّ أولى النَّاس بِفضلِ السُّرورِ وكَرمِ العَيشِ وحُسنِ الثَّناءِ مَن لا يبرحُ

([1]) أي جريحًا. والعقير هو المعقورة أي المحصودة قوائمها كلها أو بعضها. يقال ناقة عقير وجمل عقير. كان العرب إذا أرادوا نحر بعير عقروه أي قطعوا أحد قوائمه ثم نحروه. يفعلون ذلك به لئلا يشرد عند النحر. وفي الحديث الشريف أن خديجة لما تزوجت برسول الله كست اباها (خويلد) حلة وخلقته أي دهنته بالخلوق والطيب ونحرت جزروا فقال: ما هذا الحبير وهذا العبير وهذا العقير أي ما هذه الحبرة وهذا الطيب وهذا الجزور المنحور.

([2]) الصداقة.

رَحلُه[1] مِن إخوانهِ وأصدِقائِه من الصَّالحِينَ مَوطُوءاً ولا يَزالُ عِندهُ مِنهُم زِحامٌ، ويَسُرهُم ويَسُرونهُ ويكون مِن ورَاءِ حاجاتِهم وأمُورِهمُ، فإنّ الكَريم إذا عَثَر لم يَستقِلِ إلا بالكِرامِ، كالفيلِ إذا وَحِل لم يَستخرِجهُ إلا الفِيلَةُ.

* * *

لا يَرَى العَاقِلُ مَعروفاً صنَعهُ، وإن كان كثيراً. ولو خاطَرَ بِنفسِه وعَرضَها في وجُوهِ المَعرُوفِ، لم يَر ذلك عَيباً. بل يَعلمُ أَنَّما أخطَر الفَاني بالبَاقي، واشتَرَى العَظيم بالصَّغير.

وأغَبطُ النَّاسِ عِند ذَوي العَقلِ أكثَرُهُم سَائِلا منْجَحاً، ومَستَجِيراً آمِناً.

* * *

لا تَعُد غَنياً مَن لم يُشارِك في مَالِهِ، ولا تَعُد نَعِيماً ما كانَ فيهِ تَنغيصٌ وسوءُ ثَناء، ولا تَعدَّ الغُنم غُنماً إذا سَاق غُرماً ولا الغرمَ غُرماً إذا سَاقَ غُنماً، ولا تَعتدَّ من الحياةِ ما كان في فِراقِ الأحِبَّة.

* * *

ومن الَمعونة على تسليةِ الهُمُومِ وسُكونِ النفسِ لِقاءُ الأخِ أخاهُ، وإفضاءُ كُل واحدٍ منهُما إلى صاحبهِ ببثةِ.

---

(1) الرحل هنا مسكن الرجل ومنزله وبيته.

وإذا فُرقَ بَين الأَليفِ وأليفهِ فَقَد سُلبَ قَرارهُ وحُرمَ سَرورهُ.

* * *

وقل ما ترانا نخلف عقبة من البلاء إلا صرنا في أخرى.

* * *

لقد صدق القائل الذي يقول: لا يزال الرجل مستمرًا ما لم يعثر، فإذا عثر مرة واحدة في أرض الخبار(١) لج به العثار وإن مَشَى في جددِ لأنَّ هَذا الإِنسَان مُوكلٌ بِه البَلاءُ، فلا يَزالُ في تَصرفٍ وفي تَقلُبٍ لا يدُومُ له شيءٌ ولا يَثبُت مَعهُ، كما لا يَدومُ لطَالِعِ النُّجومِ طُلُوعُهُ ولا لا فِلِها أفُولهُ. ولكنها في تقلبٍ وتَعَاقُبٍ: فلا يَزالُ الطَّالعُ يكُونُ آفِلاً والآفِلُ طَالِعاً.

تم والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله وصحبه وسلم تسليمًا. حسبنا الله ونعم الوكيل

(١) الخبار الأرض السهلة اللينة التي تكثر فيها الحفر فتتهور فيها الإقدام وتسوخ فيها القوائم فكلما سار فيها إنسان أو حيوان سقط ثم قام وهكذا. وفي الحديث الشريف: فدفعنا في خبار من الأرض. ومن أمثال العرب: من تجنب الخبار أمن العثار.

الفهرس

الأدبُ الكبيرُ

اَلأَدبُ الصَغِيرُ